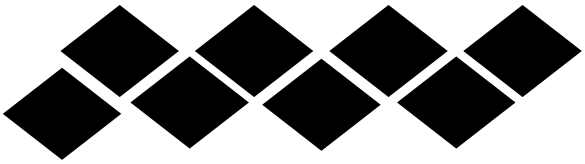

مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

التَّحَيُّز اللغوي في رحلة ابن جبير إلى المشرق العربي

د. نورهان عبد الرءوف أحمد محمد

مدرس بقسم اللغة العربية

كلية الألسن –جامعة عين شمس

DOI: 10.21608/qarts.2022.115137.1338

مجلة كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادي – العدد (٥٥) أبريل ٢٠٢٢

الترقيم الدولي الموحد للنسخة المطبوعة ISSN: 1110-614X

الترقيم الدولي الموحد للنسخة الإلكترونية ISSN: 1110-709X

موقع المجلة الإلكتروني: https://qarts.journals.ekb.eg

التَّحَيُّز اللغوي في رحلة ابن جبير إلى المشرق العربي

إعداد

د. نورهان عبد الرءوف أحمد محمد

مدرس بقسم اللغة العربية

كلية الألسن– جامعة عين شمس

nourhanabdelraouf@alsun.asu.edu.eg

الملخص باللغة العربية:

يتناول هذا البحث بالتحليل نص رحلة ابن جبير إلى المشرق العربي؛ بهدف الكشف عن الوسائل اللغوية التي وظَّفها في تقديم صور نمطية للمشرقيين إلى المتلقي الأندلسي، والآليات الخطابية التي دعمت دعايته لحكم الموحدين.

الخلفية النظرية للبحث تشكل أساسها المقاربة الاجتماعية– الإدراكية لمجال التحليل النقدي للخطاب، التي أسسها عالم اللغة الهولندي توين فان دايك، وهي تقوم على أبعاد ثلاثة هي: البنى الاجتماعية، والإدراك الاجتماعي، والنص، وتَعُدُّ الإدراك الاجتماعي وسيطًا بين المجتمع والنص.

هذه الأبعاد الثلاثة تُشكِّل المحاور الأساسية التي ينقسم البحث إليها؛ ففي البني الاجتماعية ينصب التحليل على عنصري فاعل الحدث الخطابي، وحدث إنتاج الخطاب. وفي الإدراك الاجتماعي ينطلق البحث من مفهومَي نموذج السياق ونموذج الموقف لتحليل البيئة الزمانية والمكانية، وأصناف المشاركين في خطاب الرحلة. أما تحليل البنى النصية فيرصد مظاهر البنى النصية الصغرى والكبرى والعليا التي أسهمت في عرض ابن جبير لأهالي المشرق العربي.

وخلال التحليل يفيد البحث بطبيعة الحال من بعض الإسهامات اللغوية النظرية في دراسات التحيز اللغوي والخطاب الحجاجي.

الكلمات المفتاحية: التحليل النقدي للخطاب، ابن جبير، التحيز اللغوي، أدب الرحلات، علم اللغة النصي.

المُقدِّمــة:

بدأتْ فكرة هذا البحث من مناقشات مع طلاب مرحلة الليسانس في محاضرات مادة المراجع والمطالعات، حول دور الرحالة الأوروبيين وتحيزاتهم في تشكيل الصور النمطية عن الشرق لدى الغربيين. في أثناء تلك المناقشات طرح بعضهم سؤالًا مفاده: ألم يكن للرحالة العرب بالمقابل تحيزاتهم الخاصة؟ وربما أجاب آخرون عن هذا السؤال من خلال بعض المراجع بالنفي، فرددوا أن الرحالة العرب كانوا يُعرَفون بالحياد واحترام الآخر، ويكثرون من ذكر إيجابيات البلاد التي يزورونها والمصلحين فيها.

وبدأتُ أتساءل: ألا يُعَدُّ مثل هذه العبارات في حد ذاتها نوعًا من تعميم النماذج وقولبة الذوات وتكرير الصور النمطية؟

ثم بدأتْ طريق بحثي عن إجابةٍ أكثر دقةً لتلك الأسئلة في كتب الرحلات العربية، طريق لم تكن بالطويلة؛ فرحلة ابن جبير الأندلسي – أو بعنوانها الأقل شهرة "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" – من عيون هذه الكتب. وقد وقعت رحلة ابن جبير تحت يدي بتحقيق محمد زينهم عزب، وإذا به يكتب في الصفحة الثانية من مقدمته لها أنه يَعُدُّها "كتاب دعاية لدولة الموحدين"[١]. وهي عبارة كفيلة باستثارة شغف أي باحث في تحليل الخطاب وتحليله النقدي؛ فكل دعاية سياسية تحمل بالضرورة تحيزاتها التي توظَّف اللغة في التعبير عنها وإرسائها، وإن كانت تحيزات ضمنية وغير واعية، متأثرة بكامل إدراك مرسِل الخطاب للوضع الاجتماعي الذي يتفاعل معه في خطابه.

يندرج هذا البحث إذن ضمن دراسات التحليل النقدي للخطاب الذي يركز اهتمامه على دور الخطاب في صراعات القُوَى وإنتاج الهيمنة الاجتماعية. ويستضيء البحث خاصة بإحدى مقاربات التحليل النقدي للخطاب هي المقاربة الاجتماعية– الإدراكية (ويترجمها البعض بالسوسيو– معرفية) Socio–cognitive approach، وهي مقاربة

اللغوي الأكاديمي الهولندي المعروف توين فان دايك Teun A. van Dijk[2]. يقوم تحليل فان دايك للخطاب على أبعاد ثلاثة هي: البنى الاجتماعية، والإدراك الاجتماعي، والنص. وعنده أن الإدراك الاجتماعي يؤدي دورًا وسيطًا بين المجتمع والنص.

يُقصَد بالبنى الاجتماعية الأوضاع الاجتماعية للسياق التي تؤثر في إنتاجه وتلقيه، أما الإدراك الاجتماعي فيرتبط ببنى الذاكرة قصيرة المدى وطويلة المدى، وأما البنى النصية فيَقصد بها فان دايك البنى الثلاثة التي كان قد قدمها قبل ذلك في تصوره للتحليل اللغوي النصي. وسيرد تفصيل كلٍ منها.

البِنَى الاجتماعية لرحلة ابن جبير:

وفقًا لفان دايك تُصنَّف الأوضاع الاجتماعية المؤثرة في الخطاب إلى: بنى مجتمعية صغرى تتعلق بالأفراد وتفاعلاتهم، وبنى مجتمعية كبرى تتعلق بالمجموعات والحركات والمنظمات والمؤسسات وما يحكمها من علاقات السلطة والسيطرة، وإن كان هذا التقييم تحليليًا فقط؛ فالحياة الواقعية تشهد اندماجًا وتفاعلًا فيما بين هذه البنى[٣].

يمكن القول إن ثمة بنيتين مجتمعيتين أساسيتين تنسجان جدائلهما في خطاب رحلة ابن جبير، إحداهما تنتمي إلى: البنى المجتمعية الكبرى، وهي حدث الإنتاج الخطابي. والثانية تنتمي إلى البنى المجتمعية الصغرى وهي فاعل الحدث الخطابي، أي ابن جبير نفسه.

(١)فاعل الحدث الخطابي:

نسب ابن جبير:

هو محمد بن أحمد بن جبير الكناني، ترفع كتب التراجم نَسَبَه إلى عبد مناف من العدنانيين، بَلَنْسِيّ الأصل غرناطي الاستيطان، وُلِد سنة ٥٤٠هـ، وتوفي بالإسكندرية سنة ٦١٤هـ. وكان أسلافه قد دخلوا الأندلس في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي[٤].

ولا يُعنى هذا البحث بنقل نسب مؤلف الرحلة من كتب التراجم، إلا لأهمية الالتفات إلى أصله العربي الشرقي الصريح. فمن بين جميع الأجناس التي تلاقحت في الأندلس العربية من عرب وإيبيريين وبربر ولاتين وقوط وغيرهم، كان ابن جبير عربيًا ممتدًا إلى العرب المستعربة، ما يعني أن نظرته إلى المشرق العربي وساكنيه لم تكن تنبع من اختلاف عِرقي، بل كانت نظرةً إلى آخر مغايرٍ مكانيًا وثقافيًا.

مكانته وولاؤه السياسي:

تشي ترجمات ابن جبير بأنه لم يكن محض طالب علم من عوام الأندلس، بل كان من خاصة بلاط الحكام الموحدين؛ فيُروَى أنه عمل مدة طويلة كاتبًا لحاكم غرناطة من الموحدين(٥)، كما يُروَى أنه ولي قضاء غرناطة(٦).

إذن الرحالة الذي خرج في رحلة حجه راصدًا أحوال الآخر المكاني الثقافي، كان محكومًا في رصده وتقييمه بعنصر ثالث للغيرية غير المكان والثقافة، هو الاختلاف السياسي، ليس بوصف فاعل الحدث الخطابي مجرد فرد منضوٍ تحت راية الحكم الموحدي المغربي المنافس للخلافة العباسية المشرقية والدول المتفرعة عنها، بل بوصفه أحد خاصة رافعي تلك الراية ونخبها.

لم تؤثر مكانة ابن جبير في مواقفه التي عكسها نص الرحلة وحسب، لكنها – لا بد – قد أدت دورًا فاعلًا في تيسير سبل وصول هذا النص إلى أيدي المتلقين؛ فمؤلفها جمع بين كونه أديبًا ذائع الصيت في مجتمع يثمن الكتب والكُتَّاب، وكونه رجل دولة ذا علاقات واسعة بين رجال السلطة.

(٢)حدث الإنتاج الخطابي: مرحلة تدوين الرحلة:

يُذكَر أن لابن جبير ثلاث رحلات خاضها في بلاد المشرق العربي، لم يدون منها سوى رحلته الأولى التي كانت بدافع الحج، فقد ارتحل ابن جبير إلى المشرق العربي

للمرة الأولى إبان فترة الحروب الصليبية، وكان معظم البلاد العربية المشرقية يخضع – ولو شكلًا – للخلافة العباسية بعد إنهاء صلاح الدين الأيوبي (ت ٥٨٩هـ) خلافة الفاطميين في مصر.

خرج ابن جبير من غرناطة في شوال سنة ٥٧٨ هـ، وبدأ تدوين ملاحظاته وهو مبحر من سبتة إلى الإسكندرية، لكنه تلافى ما فاته؛ فذكر ما سبق ذلك من أسماء المدن التي مر بها. والإسكندرية أول موضع يسهب ابن جبير في الحديث عنه، وقد وصل إليها في ذي الحجة من السنة نفسها. بعد مسير طويل بالمدن المصرية وصل ابن جبير إلى جدة في ربيع الآخر من سنة ٥٧٩ هـ، ثم اتجه إلى مكة لأداء مناسك الحج، ومنها إلى المدينة المنورة. أما طريق عودته إلى الأندلس فمر عبر مدن العراق، ثم مدن الشام – بما فيها بعض المدن التي كانت تحت السيطرة الصليبية –، بعدها اتجه إلى صقلية في مركب إفرنجي، وعبر مدنها عائدًا إلى الأندلس التي وصل إليها في محرم من سنة ٥٨١هـ. فكانت مدة الرحلة نحو سنتين وثلاثة أشهر ونصف(٧).

تُعَدُّ فترة الرحلة إذن من أخطر فترات التاريخ الإسلامي العربي وأثراها، فمن ناحية كانت مواجهة الحروب الصليبية في الشام وفلسطين، ومن ناحية كانت حروب الأندلس نفسها في مواجهة حملات الاسترداد الأوروبية، ومن ناحية ثالثة استمرار التنافس السياسي العربي– العربي نفسه الذي تمثل من قبل في أقطابه الثلاثة: الخلافة العباسية ومركزها بغداد، والخلافة الفاطمية ومركزها القاهرة، ودول الحكم المتعاقبة في الأندلس، مع سيطرة الموحدين على حكم الأندلس، ثم انهيار القطب الفاطمي.

وقد عرف التاريخ عدة معارك للموحدين مع عرب برقة وإفريقية، مثلت صدامًا غير مباشر بالدولة الفاطمية، قبل انهيارها. فلما ظهرت الدولة الأيوبية واتسعت حدودها خارج مصر باسم الخلافة العباسية، انعكس ذلك الصدام على العلاقات الموحدية–

الأيوبية بدورها، على الرغم من قيام بعض الاتصالات الدبلوماسية بين صلاح الدين الأيوبي والخليفة الموحدي الثالث أبي يوسف يعقوب بن يوسف المنصور (ت ٥٩٥هـ)[٨]. ويذكر محمد عبد الله عنان أن غير واحد من المؤرخين ينسب إلى هذا الخليفة الموحدي مشروعًا لغزو مصر بالتحديد[٩].

وكما يتضح من تحديد ابن جبير الدقيق لتواريخ الأيام والشهور في نص الرحلة نفسه، فقد اتبع في تصنيف كتابه طريقة في كتابة الرحلة تعتمد على مادة مدونة بشكل دوري أثناء الرحلة إضافةً إلى الذاكرة، وليس على الذاكرة وحدها[١٠].

إذن فقد دُوِّن القسم الأكبر من الرحلة، وتحديدًا ما يخص البلدان العربية المشرقية بشكل آنِيّ، يقوم على التسجيل المباشر أو اليومي للأحداث والمُشاهَدات، الأمر الذي ينتج عنه عاملان مؤثران في خطاب الرحلة:

أولًا: أن كل ما يسجله الكاتب من حقائق معاينة أو آراء شخصية كان من الممكن أن يتعرض لاطلاع عفوي أو قسري من قِبَل غيره، سواء من مرافقي رحلته، أو من أهل البلاد التي ارتادها، أو من عُمَّال الحكم في تلك البلاد. ولعل هذا ما يفسر ملاحظة أحد الباحثين[١١] بأن ابن جبير لم يقدم نفسه لأهالي المشرق أو عمال دوله بوصفه أحد رجل ديوان غرناطة، حتى حين خضعت ممتلكاته للتفتيش المشدد مع مرافقيه.

لقد كان الأضمن لحرية ما يكتبه وخصوصيته أن يظهر أمام الناس بوصفه حاجًّا من عامة الناس؛ ليستطيع أن يلتقط سلوك المشرقيين في عفويته بغير تصنُّع منهم أو تكلُّف أو مجامَلة، وبغير أن يُعَرِّض كتابته لفضول الآخرين، أو يُعَرِّض نفسه للمساءلة عما يكتب.

ثانيًا: أن التسجيل الآنيّ يخضع بدرجة كبيرة للاعتبارات النفسية والانفعالية لفاعل الحدث الخطابي، واستجابته المباشرة للمثيرات الجزئية التي تعترضه، وقد تحجب عنه الرؤية الكلية؛ مما ينعكس في تمثيل الأحداث والمشاهد، ومن ثم في تقييمها والحكم عليها، وتقديمها للمتلقي.

وهذا ما يظهر مرارًا في نص رحلة ابن جبير، الذي لا يُعَدُّ وصفًا جغرافيًّا أو سياحيًّا فحسب، بل ينتقل صاحبه باستمرار من المواقف العارضة التي يعايشها إلى أحكام تعميمية حول طبيعة الآخر المشرقي – كما يتضح من تحليل البنى النصية اللاحق –، وهي أحكام قد تجد ما يناقضها في مواضع أخرى من نص الرحلة نفسه.

بيد أنه لا بد من الالتفات إلى ملحوظة دقيقة أشار إليها بعض مترجمي ابن جبير، تكمن في احتمال ألا يكون ابن جبير قد قصد إلى التأليف، وألا يكون هو نفسه من جمع نص الرحلة وأعده للنشر(١٢)، بل أنها كانت مكتوبة في شكل مذكرات يومية في أوراق منفصلة، وجمعها بعض تلاميذه(١٣). وهو احتمال قد يظهر له في نص الرحلة أثر يفسر لقارئها بعض التناقض الظاهر في مضمونها، وبعض الاضطراب في تنسيقها، وإن كان من الواضح أن ابن جبير كان يتوجه إلى متلقٍ ضمني.

بِنَى الإدراك الاجتماعي:

الإدراك الاجتماعي هو الحلقة الواصلة تبادليًا بين السياق الاجتماعي والخطاب. ويرتبط هذا الإدراك بالذاكرة الاجتماعية.

ولفهم هذه الحلقة الذهنية الواصلة يخوض فان دايك في شرح البنى الذهنية التي تُشكِّل الذاكرة الاجتماعية والمفاهيم المتعلقة بها التي يقترحها في تحليلاته لخطاب جماعات الأغلبيات والأقليات(١٤).

تنقسم الذاكرة إلى نوعين:

النوع الأول: الذاكرة قصيرة المدى، ويناط بها معالجة خطاب واحد آني.

والنوع الثاني: الذاكرة طويلة المدى، التي تعالج ركامًا من المعلومات، أي تعالج "الخطاب" في مفهومه العام. هذه الذاكرة طويلة المدى تتشكل بدورها من ثلاث بنى:

١) الذاكرة العَرَضية:

وهي ذاكرة السيرة الذاتية، أي التي ترتبط بالتجارب الشخصية والسردية، والأحداث والأنماط المبنية عليها. وهي في الأصل غير مشتركة اجتماعيًا.

٢) الذاكرة الدلالية:

هي ذاكرة اجتماعية تعالج المعتقدات، وتنظم المواقف، وتوفر أساسًا لمعالجة المعلومات حول أعضاء المجموعات الخارجية. فهي تختزن معلومات أكثر عمومًا وتجريدًا، يتأثر بها إدراك التجارب الفردية.

هذه المعلومات والمواقف العامة التجريدية تظهر في المنطوقات اللغوية في هيئة عبارات مقبولة في العموم عن السياق، مثل القول بأن "اليهود تجار ماهرون".

٣) نظام التحكم:

ويقصد به آليات التحكم في تدفق المعلومات من الذاكرة طويلة المدى إلى الذاكرة قصيرة المدى للتعامل مع المواقف المختلفة.

ومهمة هذا النظام الربط بين الأهداف والمصالح التواصلية كالإقناع من جهة، والشروط الاجتماعية والشخصية والموقفية كمستوى التعليم والجنس ودرجة العلاقة مع الطرف الآخر، فهو يتحكم في استرجاع المعلومات المناسبة للمقام.

في ضوء هذا الفهم لبنى الذاكرة يقترح فان دايك مفهومين محوريين في مقاربته للخطاب، هما مفهوما: نموذج الموقف، ونموذج السياق.

نموذج الموقف ونموذج السياق:

أما نموذج الموقف:

فهو نموذج ذهني يستدعي التجارب السابقة للموقف نفسه أو المواقف المشابهة، ويجسد معلومات لها مثيل سابق في المخطط الذهني الجمعي.

أي إن الفاعل (المتحدث– المتلقي) عند مواجهته موقفًا ما تعالجه الذاكرة قصيرة المدى، لكنه يستدعي التجارب السابقة للموقف نفسه أو المواقف المشابهة، ويبني تمثيلًا ذهنيًا للقصة/ الموقف من خلال الذاكرة العرضية. هذا التمثيل هو ما يسمح له بإعادة إنتاج ما قيل من قبل، وكيفية قوله.

ومن خلال تكرار سرد المواقف المتشابهة يتكون رابط بين الأحداث والتجارب الشخصية وبنى الذاكرة الدلالية، ما يُعرَف بنماذج الموقف العامة. فالتجارب المنعزلة والعبارات والرموز تنتقل إلى المخططات الإدراكية العامة، فتؤكد أحكامًا سابقة، فتسمح مثلًا بتحول تجربة غير ناجحة للمنافسة ضد تاجر يهودي، إلى نموذج موقف يقرر أن كل منافسة تجارية ضد تجار يهود ستنتهي بالخسارة.

ونموذج الموقف نموذج **دلالي**، فنحن لا يمكن أن نفهم حكاية حدث ما دون أن يكون لدينا تمثيل ذهني لما تدل عليه عناصر هذا الحدث ومجاله.

وأما نموذج السياق فلا يتشكل عبر الذاكرة العرضية أو الدلالية، لكنه يتعلق بالبنية الثالثة من بنى الذاكرة طويلة المدى، أي بنظام التحكم.

فنظام التحكم ينسق استرجاع المعلومات المختزنة حول الأقليات (أو جماعات الآخرين) وسلوكيات أعضائها في المواقف الآنية. وهو كذلك يخزن نماذج الموقف في الذاكرة العرضية أو ينشطها.

ويختلف نموذج السياق عن نموذج الموقف في كون الأول نموذجًا **تداوليًا** وليس دلاليًا. يكون لدى المتحدث نموذج دلالي للموقف الذي مر به كتجربة التعرض للسرقة على سبيل المثال، ويحتوي هذا النموذج على الكثير من المعلومات والتفاصيل، لكن تلك المعلومات والتفاصيل لا يُعبَّر عنها في النص إلا بشكل جزئي وفقًا لما يحتمه نموذج السياق التداولي. من ثم تختلف رواية الحادثة عند سردها لصديق عن روايتها عند تقديم بلاغ للشرطة. في الحالة الأولى تكون أقل رسمية وزاخرة بالتفاصيل والمشاعر التي لا تُعَدُّ ذات أهمية في البلاغ الرسمي.

تؤثر نماذج السياق إذن في أسلوب الخطاب ونوعه، واختيار المعلومات التي يتضمنها، أي في ملاءمة الخطاب للموقف التواصلي. وهي لذلك نماذج بسيطة تضم العناصر الأوثق صلة بهذا الموقف التواصلي.

ويلاحَظ أن ما يُعَدُّ في لحظة خطابية ما نموذج سياق يتحكم في خطاب جارٍ، قد يصير لاحقًا نموذج موقف تُسرَد عنه قصة(١٥).

في رحلة ابن جبير العديد من نماذج الموقف المتتالية ذات الصلة بالتحليل المفصل للبنى النصية؛ لذا يُكتفى في هذا الموضع بالإشارة إلى **عناصر نموذجَي الموقف والسياق المرتبطة بالرحلة** في عمومها:

١) البيئة الزمانية والمكانية:

يخرج الحاج الأندلسي في طريق الحج نحو المشرق العربي، مارًّا بالبلدان المشرقية العربية. ولفهم هذه البيئة لا بد من معرفة جمعية مشتركة بين المرسِل والمتلقين، تقوم على تصور ذهني حول فكرة الحج في الإسلام، ورقعة الانتشار العربي الإسلامي في خارطة العالم في القرن السادس الهجري، ومراكز السلطة فيها، وطبيعة رحلة الحج آنذاك... وسيلتها ومداها الزمني.

هذا التصور هو نموذج الموقف الذي يسمح للمرسِل والمتلقين بإيلاء مختلف الرموز والدوال المذكورة في النص مدلولاتها اعتمادًا على خبراتهم السابقة أو مواقف مشابهة تعرفوا عليها من قبل بشكل ما؛ ليتم الفهم بين الطرفين.

وهذا النموذج وفقًا لفان دايك يحمل الكثير من التفاصيل قد تكون أكثر مما يحمله النص نفسه، يختار المرسِل منها ما يذكره بشكل صريح أو ضمني أو يتركه غائبًا بناءً على هذا الفهم المشترك، وعلى معطيات نموذج السياق.

٢) المشاركون وصفاتهم:

- **المشارك المرسِل:**

المتحدث هو الحاج الأندلسي نفسه، أي ابن جبير. وفي نموذج الموقف الخاص به لا بد أنه يستحضر جميع الصفات التي يعرفها عن نفسه... عن مكانته الأدبية والاجتماعية وعن انتمائه الأندلسي وولائه السياسي للموحدين، لكن نموذج السياق لم يسمح له بأن يصرح بشيء من هذا.

الدور الاتصالي لابن جبير في رحلته هو دور المرسِل وراوي الأحداث معًا، يعرف القارئ أنه عايش ما يرويه بنفسه، هذا ما يسهم في إكسابه مصداقية وقدرة إقناعية مبدئية.

أما دوره الاجتماعي في نص الرحلة فهو محض فرد في مجموع، حاج من بين الحجاج المغاربة، لا يتحدث إلا بضمير جمع المتكلمين من بداية الرحلة وحتى آخرها، يقول على سبيل المثال:

- "وكان **طريقنا** في البحر محاذيًا لبر الأندلس"- "فكانت **إقامتنا** على متن البحر ثلاثين يومًا"- "فأول من **شاهدنا** مجلسه منهم الشيخ الإمام رضيّ الدين القزويني رئيس الشافعية"- "**وكنا نتخوف** في هذا الطريق قلة الماء"- "وفي ضحوة يوم

الثلاثاء الثالث عشر منه **أقلعنا** على اليمن والبركة بريح شرقية لينة المهب لها نفس خافت، **داعين** لله عز وجل في إحياء ذمائها، وتقوية إجرائها، وجبال دانية **أمامنا** رأي العين، والله يتمم فضله **علينا**، ويكمل صنعه بعزته **لنا**. وتمادت وانتشرت بفضل الله تعالى، **فنزلنا** بقرطاجنّة عشي يوم الخميس الخامس عشر منه، **شاكرين** لله على ما من به من السلامة والعافية"... .

لكنه ضمير يشمله مع رفاق رحلته فقط (وربما من بينهم رفيقه أحمد بن حسان بالتحديد الذي يذكر أنه رافقه من بداية الرحلة)، ولا يشمل الضمير أي جماعة ينتمي إليها الكاتب؛ فكل من المغاربة في عمومهم، وأهل الأندلس، والموحدين يُذكرون في صيغة الغائب، في محاولة منه لإظهار مسافة تباعد، ومن ثم إظهار الحياد والموضوعية.

هذا الاستعمال لـ"نحن" القاصرة فاعل في الشحنة الحجاجية للنص، فهو غير فردي من ناحية؛ يُبعد الأحداث المروية والمشاهدات عن أن تُفسَّر على أنها حالات فردية أو تقييمات خاصة تحكمها عوامل ذاتية، بخلاف استعمال ضمير المتكلم المفرد الذي يحيل إلى "عمل خطابي فردي"(١٦).

ومن ناحية أخرى فإن هذا الاستعمال غير شامل لجماعة انتماء الكاتب الكبرى، فهو لا يحيل في أي موضع من عرضه لأهالي المشرق إلى انتمائه الأندلسي (أي باستعمال ضمائر شخصية)؛ ما يجنبه الاتهام بالانحياز لجماعة ضد أخرى، ويُظهِر كلامه واقعًا مجردًا عن أي هوى شخصي.

- **المشارك الموضوع:**

أي سكان المناطق الشرقية الذين يتحدث عنهم ابن جبير ويتخذهم موضوعًا لكتابه. وهذا هو دورهم الاتصالي الوحيد في نموذج السياق، فابن جبير لا يتوجه بكتابه

إلى هؤلاء المشرقيين، ولا يعدهم معنيين بشيء من أغراضه، حتى إنه لا يكاد يورد حوارًا واحدًا بينه وبين أحدهم، فنص رحلته خالٍ من تعدد الأصوات الذي قد يبرز وجهات نظر متعددة وانفتاحًا على آراء الآخر ومواقفه. وجل ما يورده من حوارات – وهي معدودة – يعتمد على صياغة الكلام غير المباشر من نقل وتلخيص وإجمال، وليس على جمل "مقول القول". من ذلك ما ينقله من كلام بعض خطباء المساجد، وبعض الحوارات التي سمعها عن صلاح الدين الأيوبي وبعض الأمراء وبعض الأقوال الشائعة بين الناس، أي إنه لا يترك لهم مساحة للتعبير عن أنفسهم أو تفسير سلوكياتهم ومعتقداتهم.

وربما ذكر حوارًا دار أمامه دون أن يتدخل فيه بالنقاش أو الاستفسار، فموقعه منهم موقع الراصد الصامت، لا يستفهم منهم عن أسبابهم، ولا يطلعهم على رأيه فيهم.

ولهذا التحديد في نموذج السياق أثره في عناصر نموذج الموقف التي تُرِك للكاتب حرية الاختيار من بينها بغير قيود، فيمدح من يريد منهم ويذم من يريد، ويقتضب في وصف سيماهم وسلوكهم أو يسهب كما يتراءى له، ويروي تفاصيل عنهم أو يطلق تقييمات وأحكامًا عليهم بلا رقيب.

- **المشارك المتلقي:**

تمتد مساحة تلقي رحلة ابن جبير لتشمل العديد من الحقب الزمنية، والمناطق الجغرافية، والمستويات الثقافية؛ فضمت الرحالة اللاحقين زمنيًا له، وعموم المثقفين العرب في عدة عصور، والمختصين الأكاديميين، وفي مقدمة الجميع ربما المستشرقين الأوروبيين.

أما سياق التلقي الذي قصد إليه الكاتب وكان حاضرًا في ذهنه أثناء تصنيف الكتاب ونشره، فهو المجتمع الأندلسي في القرن السادس الهجري، تحت الحكم الموحدي.

فدلاليًا مجموعة المتلقين هي الجماعة التي ينتمي إليها المرسل، والتي بنى للقارئ نموذج موقف يحيل إليها منذ بدء نصه وأرسى مسافة ذهنية فارقة بينها وبين عالَم الرحلة، حين عبَّر عن حدث خروجه من الأندلس بـ"الانفصال" في قوله:

- "وكان **انفصال** أحمد بن حسان ومحمد بن جبير من غرناطة حرسها الله للنية الحجازية المباركة، قرنها الله بالتيسير والتسهيل وتعريف الصنع الجميل، أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال المذكور وبموافقة اليوم الثالث لشهر فبرير الأعجمي".

وفعل "انفصل" مطاوع "فَصَلَ"، و"الفَصْل" الحاجز أو البون بين شيئين(١٧).

مجموعة المتلقين هذه هي المجموعة نفسها التي يتخذ المرسِل من أهدافها وقيمها معيارًا أو مقياسًا للحكم على ما يشاهده في المشرق بالصواب أو الخطأ، فابن جبير ينتهز كل مناسبة للدعوة إلى الدولة الموحدية، وينتقد كل ممارسة شعائرية تخالف المعتقدات الأندلسية. يسمح له نموذج السياق بهذا لأن ما يكتبه في النهاية يوجَّه إلى متلقي جماعته نفسها، أي إنه يتوجه بخطابه إلى متلقٍ يشاركه في الأهداف، ومقتنع سلفًا بالقيم والمعتقدات ذاتها.

وهنا لا بد من الإشارة إلى عنصرين فاعلين في نموذج السياق المشترك بين المرسِل ومجموع المتلقين الذين يتوجه إليهم، هما الأيديولوجيا المذهبية، والصورة النمطية للآخر.

الأيديولوجيا المذهبية في الأندلس:

انتشر المذهب المالكي في الأندلس العربية في فترة مبكرة من تاريخها، ولم تعرف ما كان في البلاد المشرقية من الخلافات المذهبية إلا قليلًا(١٨). وظل الأندلسيون يقلدون مذهب مالك من غير بحث إلى أن دعا ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) للمذهب الظاهري،

فلما أتى الموحدون دعوا إلى عدم العمل بأي من المذاهب المعروفة والقضاء اعتمادًا على الكتاب والسنة وحدهما، فنصروا بذلك مذهب الظاهرية[١٩]، وبين الخليفة الموحدي المنصور نفسه وفقهاء المالكية نزاعات عدة تذكرها كتب التاريخ، إذ كان المذهب المالكي متغلغلًا في المجتمع الأندلسي.

النقطة الجديرة بالذكر هنا هي ما ينقله أحمد أمين في كتابه "ظهر الإسلام" عن الجغرافي المقدسي (ت ٣٨٠هـ) في قوله بميل الأندلسيين للمذهب المالكي "فإن ظهروا على حنفي أو شافعي نفوه، وإن عثروا على معتزلي أو شيعي ربما قتلوه"[٢٠]؛ لأن هذه الملاحظة مع قلة ما عرفه المجتمع الأندلسي من تعدد في المذاهب والطوائف، تفسر حنق ابن جبير على تعددها في المشرق وتعجبه الشديد من الطقوس الدينية لبعض القبائل والشعوب المشرقية، حتى عدَّ أكثر أهل المشرق على باطل وخارجين عن الدين.

الصورة النمطية لدى الأندلسيين حول الشرق:

يشير أحمد أمين[٢١] إلى مدى تأثر الأندلس بالعلوم المشرقية، الذي بدأ باستدعاء علماء من المشرق، ثم ارتحال طلاب العلم الأندلسيين إلى البلاد المشرقية، إلى جانب نشاط حركة جمع الكتب من شتى مناحي الشرق؛ مما أدى إلى صب العلوم الأندلسية لاحقًا في القوالب الشرقية ذاتها، وتقليد علماء الأندلس لعلماء الشرق، وإيلاء قيمة كبيرة للرحلة إلى الشرق حتى "بلغ من إقبالهم على ذلك أن كان الشخص يعاب بأنه لم يرحل إلى الشرق"[٢٢].

من الواضح أن الصورة النمطية التي كانت مسيطرة لدى عموم الأندلسيين عن المشرقيين مبالِغة في التقدير، ومصحوبة فيما يبدو بنظرة تهوين من قدر أنفسهم، في مقارنة مغالِطة لصالح المشرقيين لا يصمد فيها الأندلسيون.

في هذا سبب كافٍ يفسر خيبات الأمل المتكررة التي واجهها ابن جبير في المشرق العربي، ومحاولته – الواعية أو غير الواعية – لمحو هذه الصورة النمطية السائدة عن المشرقيين، وتقديم صورة نمطية جديدة عنهم سلبية في كثير من الأحيان.

فنموذج السياق يفرض على ابن جبير مواجهة مع ذلك المتلقي الأندلسي/ الداخلي مصدرها الصورة النمطية السائدة لدى الأندلسيين حول الشرق، والتي ينقلب عليها في نصه، لكنه يتيح له في الوقت نفسه نقطة انطلاق صالحة لبناء هذا الانقلاب عليها متمثلة في الانتماء للقيم والمعايير ذاتها.

لكن صورة نمطية أخرى لم يستطع ابن جبير معارضتها – أو لم يُرِد –، هي صورة صلاح الدين الأيوبي. لعل السبب يكمن في أن كلًّا من نموذج السياق ونموذج الموقف يمنحان معلومات متناقضة عن شخص صلاح الدين.

نموذج السياق يوفر معطيات عن تشارك صلاح الدين الأيوبي والأندلسيين – والموحدين بشكل خاص – في قسم من الأعراف والقيم؛ بسبب مجابهته الحملات الصليبية وإنهائه الخلافة الفاطمية – الشيعية – وإلغائه مكوس الحج. لكنه يوفر في الوقت نفسه معطيات عن العلاقة المضطربة في حد ذاتها بين صلاح الدين والموحدين.

كذلك توفر نماذج الموقف التي يعاينها ابن جبير في رحلته معطيات عن عدل صلاح الدين وصلاحه، ودعاء الناس له، وإكرامه المغاربة المقيمين في بلاده – ما وصفه الكاتب نفسه –، وفي الوقت نفسه توفر معطيات تناقض نموذج السياق فتؤكد استمرار سوء معاملة الحجاج وفرض الضرائب والمكوس عليهم في مناطق عدة تحت حكمه.

الأمر الذي اضطر ابن جبير في إدراكه إلى محاولة التأليف بين المتناقضات بافتراض عدم علم صلاح الدين بتلك المثالب تارة، وتارة أخرى إلى تناقض داخلي في موقفه هو من صلاح الدين داخل نص الرحلة، وتارة ثالثة إلى التوجه إلى صلاح الدين مباشرة بمناشدة لرفع ظلم عماله عن الحجاج في قصيدة معروفة له بدأها بمدحه، وهي من المعلومات التي يمد بها نموذج السياق الخاص بالمتلقي وليس المرسِل.

البنى النصية:

يقوم التحليل النصي عند توين فان دايك على بنى نصية ثلاثة، هي:

١) البنية الصغرى microstructure:

وتشكل المستوى الجزئي داخل النص، فهي بنية القضايا المفردة للجمل وعلاقاتها[٢٣]، أو بنية الجمل وتتابعاتها في النصوص[٢٤]. وتضم البنى الصغرى عناصر تركيبية ودلالية وأسلوبية وبلاغية إلى جانب عناصر السبك والحبك النصيين[٢٥].

٢) البنية الكبرى macrostructure:

وهي ذات طبيعة أكثر شمولًا تميز الخطاب ككل[٢٦]، فهي البنية الدلالية العامة لنص ما، وتصور الترابط الكلي ومعنى النص الذي يستقر على مستوى أعلى من مستوى القضايا الفردية"[٢٧]، وتشير على وجه الخصوص إلى القواعد الدلالية الخاصة باشتقاق قضايا النص الكبرى من القضايا الصغرى المتتابعة. هذه القواعد كما يذكر فان دايك هي[٢٨]: أولًا: الحذف والاختيار: أي حذف القضايا التي لا يعتمد عليها غيرها في النص، واختيار القضايا التي تعد شرطًا لفهم غيرها. ثانيًا: التعميم: أي استخلاص قضية عامة من عدة قضايا تفصيلية. ثالثًا: البناء: أي دمج عدد من القضايا لاستخلاص قضية كبرى.

٣) البنية العليا superstructure (أو بنية التخطيط schematic structure):

مخطط شكلي مجرد يحدد التنظيم الكلي لنصٍ ما[٢٩]، ومن أمثلتها النموذجية: بنية القصة أو بنية تقرير في علم النفس، ولها قواعد مُلزِمة أو ممكنة في ترتيب أجزاء النص. وبدون هذه البنى العليا لا يمكن تفسير قدرة مستخدمي اللغة على فهم خطاب ما بوصفه قصةً، أو حكمهم على قصةٍ أو حُجةٍ ما بأنها صحيحة[٣٠].

بما أن هذا البحث يركز على قضايا بعينها في نص ابن جبير، هي القضايا التي قدم بها عرضًا لأهالي المشرق العربي، فسيختار من مظاهر هذه البنى العناصر الأوثق صلة بتلك القضايا.

ويمكن أن تنتظم هذه القضايا التي يقصد البحث إلى تحليل البنى النصية للرحلة حولها في محورين:

أولًا: العرض العام للشرقيين:

المصريون في نص رحلة ابن جبير:

على مستوى البنية الصغرى، وفي دراسة الوظائف الإدراكية لكيفية حديث المرء عن سلوك الآخر/ين في مجال العلاقات بين الأشخاص اقترح الباحثان جوين سيمين Gün R. Semin وكلاوس فيدلير Klaus Fiedler نموذجًا لغويًا يُعرَف بنموذج التصنيف اللغوي linguistic category model، يتكون من مستويات أربعة تتدرج بين التجريد والحس، هي [٣١]:

(١)الأفعال الواصفة للحدث Descriptive Action Verbs: وهي أفعال تشير إلى نشاط محدد، ولها سمة جسدية واحدة على الأقل غير متغيرة، ولها بداية ونهاية

واضحتان، وليس لها غالبًا دلالات إيجابية أو سلبية في ذاتها. من ذلك الفعل "يتكلم" والفعل "يضرب" على سبيل المثال.

(٢) الأفعال المفسرة للحدث Interpretative Action Verbs: تشير إلى فئة عامة من السلوك، لها بداية ونهاية واضحتان، لكنها تملك عادةً دلالات إيجابية أو سلبية. مثال ذلك الفعلان: "يساعد" و"يؤذي". هذه الأفعال وإن كانت تعبر عن موقف للشخص، لكنها لا تشير إلى حدث سلوكي بعينه.

(٣) أفعال الحالة State Verbs: وتشير إلى حالات ذهنية أو عاطفية، وليس لها بداية ونهاية واضحتان، ولا يستساغ استعمالها في صيغة الأمر. من ذلك الفعلان: "يحب" و"يكره".

(٤) الأوصاف Adjectives: التي تشير إلى خواص أو تقييمات ثابتة عبر الزمن، مثل: "منبسط" و"عدواني".

وفي حين تُعَدَّ الأوصاف مميزة للشخص نفسهُ، تُعَدُّ الأفعال الواصفة للحدث أكثر تمييزًا للسياق. فلا يسمح استعمال الأفعال الواصفة للحدث بالاستدلال على أي خواص ثابتة للشخص، أما الفئتان الوسيطتان – أي الأفعال المفسرة للحدث وأفعال الحالة – فتشيران إلى استمرار زمني نسبي.

وتزداد أهمية المعلومات السياقية والاعتماد عليها تصاعديًا بالتدرج من استعمال أفعال الحالة إلى استعمال الأفعال الواصفة للحدث(٣٢).

فإذا وُصِف حدث ما بالقول: "فلان يضرب زميله" كان هذا وصفًا محضًا مرتبطًا بحادثة بعينها، وخاليًا من أي تفسير ذاتي أو تقييم، وأما إذا وُصِف بالقول: "فلان يؤذي زميله" انتقل هذا إلى مستوى تفسير الحدث وابتعد نسبيًا عن سياق الحادثة، فإذا قيل "فلان يكره زميله" كان أكثر ابتعادًا عن السياق وأكثر التصاقًا بالشخص على المدى

الزمني، وإذا قيل أخيرًا في التعبير عن الحادثة نفسها: "فلان عنيف" صارت سمة مميزة للشخص، فطرية فيه وهي الأكثر تجريدًا واستقلالًا عن السياق.

وُظِّف هذا النموذج فيما بعد في دراسة التحيز اللغوي الضمني وتأثر الاختيارات اللغوية غير الواعية بمعتقدات المتكلم وميوله، فالنموذج يعد مقياسًا للتجريد اللغوي. ووجد أن ثمة ميلًا إلى وصف السلوك المتسق مع الصور النمطية بشكل أكثر تجريدًا من السلوك غير المتسق معها(٣٣).

في سرد ابن جبير للمواقف التي عايشها في مصر، وتحديدًا مع المسئولين عن مسير الحجاج، ومنذ خطت قدماه محطته المشرقية الأولى الإسكندرية، يتضح في أسلوبه منحى تصاعدي في توظيف هذه الفئات الأربعة.

فعند سرده مواجهته الأولى لمفتشي الميناء استعمل بالأساس تعبيرات من الفئة الأولى، أي فئة الأفعال الواصفة للحدث(٣٤)، التي تشير إلى حدث محدد وسمة فيزيائية جسدية ثابتة، وترتبط وثيقًا بالسياق، يقول:

- "فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أن **طلع** أمناء إلى المركب من قِبل السلطان بها **لتقييد** جميع ما جلب فيه. **فاستحضر** جميع من كان فيه من المسلمين واحدًا واحدًا **وكتبت** أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم، **وسئل** كل واحد عما لديه من سلع أو ناض ليؤدي زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل. وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم، فلزّموا أداء زكاة ذلك دون أن يسأل أحال عليه الحول أم لا".

ثم يقول:

- "**وأُمِر** المسلمون بتنزيل أسبابهم وما فضل من أزودتهم، وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم وبحمل جميع ما أنزلوه إلى الديوان. **فاستدعوا** واحدًا واحدًا **وأحضر** ما لكل واحد من الأسباب، والديوان قد غص. **فوقع التفتيش** لجميع الأسباب، ما دق منها وما جل، واختلط بعضها ببعض، و**أدخلت الأيدي** إلى أوساطهم بحثًا عما عسى أن يكون فيها. ثم **استحلفوا** بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا.

وفي أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدي وتكاثر الزحام، ثم **أطلقوا** بعد موقف من **الذل والخزي** عظيم".

وهو بهذا لا يتهم أولئك الأمناء في أنفسهم، بل يضع تلك الممارسات في موقفها المؤقت. لكنه أثناء هذا السرد يتدخل من جانبه بذكر نتائجها، وتقييماته الذاتية لها، مما يعده فان دايك محاولة لإدارة تقييمات المستمع واستنتاجاته(٣٥). فابن جبير يعيد توجيه الدلالات المعجمية المحايدة للأفعال المستخدمة بربطها في علاقات سببية مع قضايا أخرى سلبية كضياع أغراض الناس، وعلاقات مقابلة ضمنية بين التمثيل الإيجابي لجماعة الذات/ الركاب والتمثيل السلبي للآخرين/ المفتشين، فالركاب يُعَرَّفون على أنهم "المسلمون" ومقصدهم الوحيد المذكور هو "أداء الفريضة" وهم ضحايا "موقف من الذل والخزي"، في حين أن الأمناء يخرقون حتى الشروط الشرعية لأخذ الزكاة.

من الملاحظ أن ابن جبير هنا ينتقي من نموذج السياق ما يناسب توجيهه، فهو يحيل القارئ إلى خرق القيم الدينية المشتركة من قبل المفتشين، لكن يغيب عن نصه – كما يشير شوقي ضيف – "أن مصر حينئذٍ كانت تحارب الصليبيين، وأنه كان يركب سفينة أوروبية من جنوة، هي موضع شك واتهام"(٣٦).

حين يتكرر موقف التفتيش معه ابن جبير للمرة الثانية في صعيد مصر يتغير أسلوبه في سرد الأحداث، فيعمد بالأكثر إلى الفئة الثانية وهي الأفعال المفسرة للحدث ومصادرها، التي تصف سلوكًا عامًا موجَّه التأويل لا مجرد وصف بسيط للحدث، ويرتبط فهمها بجانبها المعجمي الخاص أكثر من علاقتها بالسياق، فهو يقول:

- "وببلاد هذا الصعيد المعترضة في الطريق للحجاج والمسافرين، كإخميم وقوص ومنية ابن الخصيب من **التعرض** لمراكب المسافرين **وتكشفها** والبحث عنها **وإدخال الأيدي** إلى أوساط التجار، **فحصًا** عما تأبطوه أو احتضنوه من دراهم أو دنانير، ما **يقبح** سماعه **وتستشنع** الأحدوثة عنه، كل ذلك برسم الزكاة **دون مراعاة** لمحلها أو ما يدرك النصاب منها، **حسبما ذكرناه في ذكر الإسكندرية من هذا المكتوب.** وربما **ألزموهم** الأيمان على ما بأيديهم، وهل عندهم غير ذلك، ويحضرون كتاب الله العزيز تقع اليمين عليه. فيقف الحجاج بين أيدي هؤلاء المتناولين لها **مواقف خزي ومهانة** تذكرهم أيام المكوس".

وهو يكرر المجاز التصويري الحركي في "إدخال الأيدي إلى أوساط الناس"، مع تكرار تدخله الشخصي بالتقييم السلبي للموقف، لكن مع انتقال تدريجي من الخاص إلى العام؛ فقد تحول الموقف **المفرد** السابق "من الذل والخزي" إلى **جمع** من "مواقف خزي ومهانة"، مع النص الصريح على مشابهة نموذج الموقف هذا للنموذج السابق.

كما يعيد الاحتكام إلى القيم الدينية التي يعبر عن اختراق المفتشين لها، كالنهي الديني عن التجسس في قوله:

- "ومن **أشنع** ما شاهدناه من ذلك خروج شرذمة من مردة أعوان الزكاة، في أيديهم المسال الطوال ذوات الأنصبة، فيصعدون إلى المراكب **استكشافًا** لما فيها، فلا يتركون عكما ولا غرارة إلا ويتخللونها بتلك المسال الملعونة مخافة أن يكون في

تلك الغرارة أو العكم اللذين **لا** يحتويان سوى الزاد شيء غيّب عليه من بضاعة أو مال. وهذا **أقبح** ما يؤثر في الأحاديث الملعّنة، وقد نهى الله عن التجسس، **فكيف** عن الكشف لما يرجى ستر الصون دونه من حال لا يريد صاحبها أن يطلع عليها".

يدعم ابن جبير حكمه في هذه المقتبسات بعدد من المُوَجِّهات اللغوية modalities، والمُوَجِّهات هي عناصر تحدد وجهة نظر الفاعل الناطق حول مضمون ملفوظ ما[٣٧]، أو التي من خلالها يؤسس المتكلمون علاقاتهم بذوات أخرى وبكلامهم الخاص[٣٨]. ولهذه الموجهات أكثر من تصنيف، فهناك مُوَجِّهات معرفية تعبر عن مدى التزام المتكلم بحقيقة قضية الجملة بين الشك واليقين، وهناك مُوَجِّهات صدقية تعبر عن درجة صدق القضية بين الضرورة والإمكان والامتناع، وموجهات حُكْمِية تعبر عن درجة الإلزام والجواز والحظر، ومُوَجِّهات القيمة التي تعبر عن الاستحسان أو الاستهجان...، وقد يُستعمَل لكلٍ من هذه الأنواع صيغ أساسية كأدوات التوكيد والنفي وأساليب التعجب والمدح والذم...، وقد يُستعمَل لها موجهات تعبيرية تشمل ظواهر لغوية مختلفة[٣٩].

وأكثر المُوَجِّهات الموظفة في المقتبسات السابقة من نوع مُوَجِّهات القيمة؛ ففي المقتبس الأول كانت الأفعال ذات دلالة التقييم السلبي بحد ذاتها (يقبح– تستشنع)، لكنها وصلت في المقتبس الثالث إلى اسم التفضيل من الأفعال نفسها الدال على التناهي في الصفة السلبية (أشنع– أقبح).

بتكرر موقف شبيه معه للمرة الثالثة بميناء عيذاب ينتقل ابن جبير إلى مستوى أفعال الحالة التي ليس لحدثها بداية أو نهاية محددتين، وهي أكثر استقلالًا عن السياق من سابقتيها، فيقول عن أهل عيذاب:

- "لكنهم ببلدة لا رطب فيها ولا يابس قد **ألفوا** بها عيش البهائم".

ثم يرتفع درجة أخرى فيعمد إلى فئة الأوصاف – التي يقابلها في العربية غالبًا الجملة الاسمية التي لا يحتوي خبرها على فعل، أو وظيفتا النعت والحال –، يقول:

- "على أنهم أقرب إلى الوحش منهم إلى الإنس".

وعلاوة على كون تعبيرات هذه الفئة تدل على سمات مميزة للموصوف بها وطبيعة متأصلة فيه، فإن تلك الطبيعة تخفض من الرتبة البشرية العقلية لأهل عيذاب عبر الاستعارة البنيوية التي تحملها، فتسقط عليهم بنية الوحوش غير المتحضرة وتضخم من خطورتهم على البشر/ الحجاج.

وعلى الرغم من أن ابن جبير يبرر أحيانًا خروجه بمثل هذه التقييمات، فإن استقلال دلالة هذه الفئة الوصفية عن سياق موقف استعمالها يجعل منها وسمًا يطبع أصحابها، كما في وصفه لأهل عيذاب بقوله:

- "**ولأهل عيذاب في الحجاج أحكام الطواغيت**".

وبعد هذا القول تبريره باستعمال عنصر الإحالة الموسعة "ذلك"، وفعل واصف للحدث يعمل على تصوير مشهد حركي منفر لسلوكهم، يليه عدد من أفعال الحالة التي إلى جانب استقلالها عن سياق الحدث، تصادر على الموسومين بها التعبير عن أحوالهم الذهنية والعاطفية، ويخلص من هذا كله بإصدار حكم عليهم في صيغة تقريرية يتصدرها اسم التفضيل، فيقول:

- "**وذلك** أنهم **يشحنون** بهم الجِلاب حتى يجلس بعضهم على بعض وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج المملوءة، **يحمل** أهلَها على ذلك **الحرصُ والرغبةُ** في الكراء حتى يستوفي صاحب الجلبة منهم ثمنها في طريق واحدة **ولا يبالي** بما يصنع البحر بها بعد ذلك، ويقولون: علينا بالألواح، وعلى الحجاج بالأرواح. وهذا مثل متعارف بينهم. **فأحق** بلاد الله بحسبة **يكون السيف** درتها هذه البلدة".

بَيْدَ أنه في موضع تالٍ مباشرة لهذا الحكم يتخلى عن التبرير، ويعود إلى وصف أهل عيذاب وصفًا من الفئة الرابعة فئة الأوصاف الدالة على طبيعة متأصلة، فيقول:

- "وأهلها الساكنون بها من قبيل **السودان** يُعرَفون بالبجاة".
- "وهذه الفرقة من **السودان** المذكورين فرقة **أضل من الأنعام سبيلًا وأقل عقولًا**".

من الصعب تخليص كلمة مثل "السودان" من ظلالها الاستعلائية حتى وإن لم يقصدها المرسِل، لا سيما حين تتجاور مع هذا النوع من الأوصاف التي تنقل لجماعة من البشر بِنًى حيوانية، مع موجه القيمة السلبي المتمثل في اسمَي التفضيل "أضل" و"أقل"، وفي تناصٍ هذه المرة مع القرآن الكريم يُلَوِّح عن بُعد بالحكم الإلهي في غيرهم ليستدعي إيحاءاته.

الحجازيون في نص رحلة ابن جبير:

الملاحَظ أن ابن جبير في حديثه عن أهالي البلاد التي زارها بعد عبوره من صعيد مصر، لم يعد يسرد تجارب واجهته بعينها سردًا يقوم على أفعال واصفة للحدث، بل يرتفع مباشرة إلى أفعال الحالة والأوصاف، وربما وظف القليل من الأفعال المفسرة للحدث، مبتعدًا بالتمثيل الذي يقدمه لهم عن أي سياق مؤقت يفسره، ونائيًا بالمتلقي عن حمله على كونه مجرد حالة فردية أو حالات معدودة.

يقول مثلًا عن أهل جدة:

- "**وأكثر** هذه الجهات الحجازية وسواها فرق وشيع لا دين لهم قد **تفرقوا** على مذاهب شتى. وهم **يعتقدون** في الحاج ما لا يُعتقد في أهل الذمة، قد **صيروهم** من أعظم غلاتهم التي **يستغلونها: ينتهبونهم** انتهابًا، **ويسببون** لاستجلاب ما بأيديهم استجلابًا. فالحاج معهم لا يزال في غرامة ومؤونة إلى أن ييسر الله رجوعه إلى وطنه".

فكلٌ مِن "تفرقوا على مذاهب" و"يعتقدون" و"يسببون" هنا من أفعال الحالات الذهنية، و"ينتهبون" و"يستغلون" من الأفعال المفسرة للحدث التي لا ترتبط بتجربة محددة،

ومن جديد باستعمال اسم التفضيل الذي يوجه هذه المرة إلى معنى التعميم أو التغليب "أكثر"، وكذلك يُصحَب حديثه بالتحذير من عواقب التعامل معهم.

وغاية ما يسرده ابن جبير من مواقف يمكن لها تفسير هذه التعميمات قصة عن أمير مكة واستغلاله لمكوس الحج التي رفعها صلاح الدين، وهو موقف خاص لم يقع لابن جبير نفسه ولم يشهد عليه بنفسه، لكنه غالط وخرج منه بالتقييم العام – السابق ذكره – لأهل المناطق الحجازية، والذي لم يقدم له نموذج موقف يدعمه.

فهو على مستوى البنى الكبرى يعتمد في الواقع على تكرير التقييم نفسه لعدة نماذج موقف ترتبط دلاليًا بمجال إدراكي واحد هو استغلال الحجاج، فيُظهِر نموذج موقف ما مشابهًا لنماذج أخرى، أو بوصفه مجرد مثال لمخطط عام، وهذا بحد ذاته من آليات تعزيز المصداقية التي يشير إليها فان دايك[٤٠]؛ فهو يُسَوِّغ لابن جبير استخلاص الحكم العام السابق على عيذاب، وإسقاطه على الحجاز، فيستعمل اسم التفضيل نفسه في صياغة شديدة الشبه فيما نصه:

- "**فأحق** بلاد الله بأن يطهرها السيف ويغسل **أرجاسها وأدناسها** بالدماء المسفوكة في سبيل الله هذه البلاد الحجازية **لما هم عليه من حل عرى الإسلام** واستحلال أموال الحاج[٤١] ودمائهم.

فمن يعتقد من فقهاء أهل الأندلس إسقاط هذه الفريضة عنهم فاعتقاده **صحيح** لهذا السبب، وبما يصنع بالحاج مما لا يرتضيه الله عز وجل. فراكب هذا السبيل راكب **خطر ومعتسف** غرر. والله قد أوجد الرخصة فيه على غير هذه الحال، فكيف وبيت الله الآن بأيدي أقوام قد اتخذوه معيشة **حرام** وجعلوه سببًا إلى **استلاب** الأموال واستحقاقها **من غير حل ومصادرة** الحجاج عليها **وضرب الذلة والمسكنة الدنية عليهم**، تلافاها الله عن قريب بتطهير يرفع هذه **البدع المجحفة** عن المسلمين **بسيوف الموحدين أنصار الدين**،

وحزب الله أولي الحق والصدق، والذابّين عن حرم الله عز وجل، **والغائرين** على محارمه، **والجادين** في إعلاء كلمته وإظهار دعوته ونصر ملته".

مع التصريح بغرضه الذي كان مبطنًا من قبل في الدعوة للموحدين، التي مهد لها من قبل وواصل توطيدها عبر مقارناته الضمنية الممتدة على مدار أجزاء نص الرحلة بين الشرقيين المشاركين في نماذج الموقف السابقة الذين نُمِّطت صورتهم لتتسم بانتهاك القيم الدينية العليا وخطورة سيطرتهم على طريق الحج، والحكم الحالي القائم على صورة نمطية إيجابية سائدة عن الموحدين اعتمد المرسِل على التسليم بها دون إثبات، فجاءت الألفاظ المعبرة عنها في صيغة نعوت نحوية أو توابع متتالية: "الموحدين أنصار الدّين، وحزب الله أولي الحق والصدق، والذابّين عن حرم الله عز وجل، والغائرين على محارمه، والجادين..."، وليس في صيغة إسناد إخباري لمعلومة جديدة؛ إما افتراضًا من المرسِل بكونها مسلمًا بها لدى متلقيه الذي يشاركه الانتماء، أو انخراطًا في دعاية أخرى معاصرة ربما كان ينشرها الموحدون أنفسهم بوسائل موازية.

ينتقل المرسِل علاوة على هذا إلى دمج نماذج الموقف المتشابهة وتقييماته لها؛ لبناء حكم آخر أكثر تعميمًا على جميع "الجهات الشرقية"، يخلو من أي حدث أو وصف، ويشكل قضية كبرى في نص الرحلة، هو "لا إسلام إلا ببلاد المغرب"، في قوله:

- "**وليتحقق** المتحقق **ويعتقد** الصحيح الاعتقاد أنه **لا إسلام إلا ببلاد المغرب، لأنهم على جادة واضحة لا بُنيَّات لها.** وما سوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية فأهواء وبدع، وفرق ضالة وشيع، إلا من عصم الله عز وجل من أهلها. كما أنه **لا عدل ولا حق ولا دين على وجهه إلا عند الموحدين،** أعزهم الله، فهم آخر أئمة العدل في الزمان. **وكل** من سواهم من الملوك في هذا الأوان فعلى غير الطريقة".

وابن جبير لا يكتفي عند تقرير مثل هذا الحكم التعميمي خطير الشأن على تمهيداته وتوطيداته السابقة التي توصل المتلقي إليه على مستوى البنية الكبرى والعلاقة بين مقاطع النص وحدها، بل يشبع الجمل المعبرة عنه ذاتها بطاقة حجاجية كبيرة؛ تبدأ بالموجه الحكمي الإلزامي المتمثل في صيغة الأمر عبر اللام والفعل المضارع المسند إلى فاعل حاضر فقط عبر وصفه بوصف يحصر بدلالته المعجمية ذاتها الحقيقة وصحة الاعتقاد في مشاركة معتقد المرسِل. ولا تنتهي بعامل القصر الحجاجي المتكرر ("لا... إلا") الذي يحصر القيم الإيجابية المجتمعة في فريق "سياسي" واحد دون غيره. وبجانب هذا وذاك التعليل بالرابط السببي الصريح "لأنهم" الذي يوحي بتبرير الحكم لكنه في الواقع لا يقدم سوى تبريرًا استعاريًا مبهمًا ومصادِرًا بدوره، فيعبر عن معتقد الموحدين بجادة الطريق الواضحة الموصلة للغرض، وعن غيرها بتفرعات نحو التيه والضياع الذي يعم "كل" من يسير على غيرها.

والملاحَظ أن ابن جبير يخلص إلى مشروعية دعوته – أو دعايته – للموحدين وأفضليتهم على غيرهم، على الرغم من أنه لم يكن قد أتم بعدُ رحلته في جميع بلدان الشرق، مما يرجح أن النسخة التي انتشرت لنص الرحلة هي ذاتها نص ابن جبير نفسه الذي كان يدونه بشكل يومي مباشر بغير تنقيح، فلهذه الأحكام التعميمية ما يناقضها فعليًا في عدة مواضع تالية زمنيًا من الكتاب – خاصة عند حديثه عن علماء الحجاز والعراق وبلاد الشام –.

اليمنيون في نص رحلة ابن جبير:

يختلف أسلوب ابن جبير عند حديثه عن بعض زائري مكة من قبائل اليمن (السرو مائرين) الذين لم يكن له موقف نزاعي معين معهم، ولا هم من ذوي السلطة على

طريق الحجاج أو إقامتهم؛ فهو يقدم لهم نموذج موقف جديدًا لا يشبه نماذج سابقة في رحلته.

لكنه في رصده لسلوكهم لا يتخلى عن مقياسه الذاتي؛ فيتعجب من كل ما يفعلونه ويقدمه بوصفه شذوذًا عن المألوف، بدءًا من طريقتهم في التجارة وحتى صلاتهم وطوافهم.

يرسم ابن جبير لهؤلاء اليمنيين صورة كاريكاتيرية صريحة في السخرية، ويوظف فيها عناصر المفارقة والموجهات القيمية ومختلف الآليات الإقناعية، يقول عنهم:

- "**ومن العجب** في أمر هؤلاء المائرين أنهم لا يبيعون من جميع ما ذكرناه بدينار ولا بدرهم، إنما يبيعونه بالخرق والعباءات والشمل".
- "**والقوم عرب صرحاء فصحاء جفاة أصحاء، لم تغذهم الرقة الحضرية** ولا هذبتهم السير المدنية ولا سدّدت مقاصدهم السنن الشرعية، فلا تجد لديهم من أعمال العبادات سوى **صدق النية**، فهم إذا طافوا بالكعبة المقدّسة يتطارحون عليها تطارح البنين على الأم المشفقة لائذين بجوارها متعلقين بأستارها فحيثما علقت أيديهم منها تمزق لشدة اجتذابهم لها وانكبابهم عليها. **وفي أثناء ذلك** تصدع ألسنتهم بأدعية تتصدع لها القلوب وتتفجر لها الأعين الجوامد فتصوب".
- "فتراهم في محاولة دخولهم **يتسلسلون** كأنهم بعض ببعض مرتبطون، **يتصل** منهم على هذه الصفة الثلاثون والأربعون إلى أزيد من ذلك، **والسلاسل** منهم يتبع بعضهم بعضًا، وربما **انفصمت** بواحد منهم، يميل عن المطلع المبارك إلى البيت الكريم، **فيقع الكل لوقوعه**، فيشاهد الناظر لذلك مرأى **يؤدي إلى الضحك**".

- "وأما صلاتهم فلم يذكر في **مضحكات** الأعراب **أظرف** منها، وذلك أنهم يستقبلون البيت الكريم فيسجدون دون ركوع وينقرون بالسجود نقرًا، ومنهم من يسجد السجدة الواحدة ومنهم من يسجد الثّنتين والثلاث والأربع ثم يرفعون رءوسهم من الأرض قليلًا وأيديهم مبسوطة عليها، ويلتفتون يمينًا وشمالًا التفات المروع ثم يسلمون أو يقومون دون تسليم ولا جلوس للتشهد، وربما تكلموا في أثناء ذلك، وربما رفع أحدهم رأسه من سجوده إلى صاحبه وصاح به ووصاه بما شاء ثم عاد إلى سجوده، إلى غير ذلك من أحوالهم الغريبة".
- "ولا ملبس لهم سوى أزر وسخة أو جلود يستترون بها، **وهم مع ذلك** أهل بأس ونجدة".
- "**وعلى** ما وصفنا من أحوالهم فهم أهل اعتقاد للإيمان صحيح".

يغلب على وصف ابن جبير لهؤلاء اليمنيين في المقتبسات السابقة السخرية، وهي تتضح حتى من ألفاظه الصريحة "الضحك" و"مضحكات".

أحد العناصر الأساسية لهذه السخرية مجموعة من المفارقات اللفظية عبر المراوحة بين السلبيات والإيجابيات وتوجيه الإيجابيات توجيهًا مفارقًا أحيانًا؛ لتتحول بذاتها إلى دافع للسخرية؛ فوصفهم بـ"عرب صرحاء فصحاء" يؤول ليتهمهم بالجفاء والبعد عن الحضارة، وصدق نيتهم لم يرتقِ بهم عن سوء العمل، وتعلقهم بأستار الكعبة ينتهي إلى تمزيقها، واعتقادهم الصحيح لم يدفعهم إلى تعلم العبادات على وجهها، وصلاتهم ليست كصلاة المسلمين، وبأسهم ونجدتهم غيرَهم يجتمعان مع صفات تنفر غيرهم منهم كالاتساخ وضعف الاستتار، تُجمَع هذه المتناقضات عبر عناصر لغوية أبرزها وسائل الربط العكسي مثل: "في أثناء ذلك"– "مع ذلك"– "على ما وصفنا".

عنصر فاعل آخر في خلق السخرية في المقتبسات هو الوصف الحسي والحركي عبر أفعال واصفة للحدث، يوظفها ابن جبير لخلق مشهد كامل في ذهن المتلقي يقحمه في نموذج الموقف بإحالته إلى حاسة البصر، وهو نموذج موقف مفارق بدوره لما يتوقع المتلقي رؤيته في الحرم، وهو يعتمد على تسلسل هذه الأفعال التي يسلم أحدها للآخر فتؤدي إلى نتيجة مفارِقة أيضًا لمفهومَي الصلاة والطواف؛ لتكون الصورة العامة التي يخرج بها متلقي الرحلة عن قبيلة بأكملها تسمها ملامح الحمق والهوج والجهل بالدين.

فهل كانت هذه الصورة حقيقية عن قبائل السرو؟ ليس من أغراض هذا البحث التقصي التاريخي الاجتماعي، لكن ما يمكن استشفافه من خطاب ابن جبير نفسه أنه – على الأغلب – لم يشهد هذه الصورة بنفسه، ولعله سمعها ضمن أحاديث الناس.

إن الحجة الرئيسة لابن جبير في خطاب رحلته هي حجة التجربة الشخصية التي يعبر عنها عادةً بالفعل "شاهدنا" الدال بأصله اللغوي على الحضور(٤٢)، وهو يستعمله وحده أو ضمن صلة الموصول الحرفي في "أول ما شاهدنا" و"مما شاهدنا" و"أشنع ما شاهدناه"... . تلك التجربة الشخصية – بحسب فان دايك – تعزز من مصداقية الكلام لأنها تزوده بدليل واقعي لنموذج الموقف، من غير الممكن إنكاره أو عده تخيلًا(٤٣).

لكن ابن جبير في هذا الموضع – أي المقتبسات السابقة – يذكر الأحداث والممارسات بصيغ تقريرية، دون أن يسبقها بتعبيره "شاهدنا". بدلًا من ذلك يذكر حجتين أخريين على كلامه، أولاهما نموذج شاهده بالفعل وهو لصبي من تلك القبائل يتعثر في تعلم القرآن، يقول:

- "وشاهدنا منهم صبيًا في الحجر قد جلس إلى أحد الحجاج يعلمه فاتحة الكتاب وسورة الإخلاص. فكان يقول له: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" فيقول الصبيّ: "هو الله أحد"

فيعيد عليه المعلم، فيقول له: "ألم تأمرني بأن أقول: هو الله أحد؟ قد قلت". فكابد في تلقينه مشقة، وبعد لأي ما علقت بلسانه. وكان يقول له: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ"، فيقول الصبي: "بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله". فيعيد عليه المعلم، ويقول له: "لا تقل: والحمد لله، إنما قل: الحمد لله" فيقول الصبي: إذا قلت: بسم الله الرحمن الرحيم، أقول: والحمد لله، للاتصال، وإذا لم أقل بسم الله، وبدأت قلت: الحمد لله" فعجبنا من أمره ومن معرفته طبعًا بصلة الكلام وفصله دون تعلم".

وهو نموذج فردي فاعله الأساسي بتعبير ابن جبير نفسه "صبي"، وقع ابن جبير في مغالطة تعميمه، ربما ساعده على ذلك أقوال سمعها من غيره، ورجحها عنده حجته الثانية وهي الحديث النبوي في قبائل السرو "علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء"، الذي يتناص معه ليفيد من قوته الدينية ويتخذه دليلًا على جهلهم بالصلاة، لكنه يقتطعه من سياقه الزمني، ويعده ساريًا على القوم أنفسهم بعد مضي ستة قرون.

العراقيون في نص رحلة ابن جبير:

كان لأهل العراق النصيب الأكبر من عرض ابن جبير السلبي حتى من قبل ولوجه في أيٍ من المدن العراقية. فعند ذكره زيارتهم للحرم يبدأ كعادته بتقييم عام، ثم يفصله بتفاصيل السلوكيات.

لكنه لا يبدأ تقييمه هذه المرة باستعمال فئة الأوصاف في صيغتها الإسنادية، بل في صيغة المركب الوصفي؛ فيسميهم "الأعاجم العراقيين" في قوله:

- "وفي هذه الأيام يفتح البيت الكريم كل يوم **للأعاجم العراقيين** والخراسانيين وسواهم من الواصلين مع الأمير العراقي، فظهر من **تزاحمهم وتطارحهم** على الباب الكريم ووصول بعضهم على بعض **وسباحة** بعضهم على رءوس بعض

كأنهم في غدير من الماء، أمر لم يُر أهول منه، يؤدي إلى تلهف المهج وكسر الأعضاء. وهم في خلال ذلك لا يبالون **ولا يتوقفون**، بل يلقون بأنفسهم على ذلك البيت الكريم، من فرط الطرب والارتياح، **إلقاء الفراش بنفسه على المصباح**. فعادت أحوال السرو اليمنيين في دخولهم البيت المبارك على الصفة المتقدمة الذكر، حال تؤدة ووقار بالإضافة إلى هؤلاء **الأعاجم الأغتام**، نفعهم الله بنياتهم".

من البين أن كلمة "أعاجم" ليست كلمة محايدة الدلالة تتكئ فحسب على أصل معناها المعجمي بعدم البيان بالعربية، ولا على مجرد تطور معناها إلى مَن هم مِن غير العرب، بل لها إيحاءات إقصائية استُعمِلت في مركب وصفي من قبيل الافتراض السابق الذي يفترض أن المعلومة التي يحملها قديمة في ذهن المتلقي، وليست معلومة جديدة قابلة للمناقشة. غير أن تكريرها وتجاورها مع كلمة "الأغتام" المرادفة(٤٤) يعكس موقفًا ذاتيًا لابن جبير منهم، لعل مصدره في نموذج الموقف أنه لم يفهم بالفعل كلامهم.

أما التفاصيل المسوغة لهذا التقييم فاستعمل لها عدة مصادر لأفعال واصفة للحدث لخلق مشهد حركي شبيه بمشهد اليمنيين السابق، ومن ثم المفاضلة بينهما.

مع اختلاط ذلك كله بعناصر المجاز الساخر، كاستعارة بنية السباحة في غدير ماء ودوران الفراش حول الضوء، ليسند إلى العراقيين والخراسانيين تحركات لا يبالي أصحابها بمن حولهم ولا يعطون مقام الحرم حقه.

وأما زيارته إلى بغداد فيظهر منذ بدء ذكره إياها تحيز واضح تجاه حتى المدينة نفسها، ومحاولة للانتقاص من قيمتها، يقول ابن جبير:

- "هذه المدينة العتيقة، وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسية، ومثابة الدعوة الإمامية القرشية الهاشمية، **قد** ذهب أكثر رسمها، **ولم يبق منها إلا شهير اسمها**.

وهي بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب إليها كالطلل الدارس، والأثر الطامس، أو تمثال الخيال الشاخص، **فلا حسن** فيها يستوقف البصر ويستدعي من المستوفز العقلة والنظر، **إلا** دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها".

وهو ما يناقضه في الحقيقة وصف ابن جبير نفسه فيما يلحق لمرافق المدينة وأسواقها. لكنه مع ذلك عمد في تعريفه الأول بالمدينة إلى عدد من عوامل التعزيز اللغوية، منها الموجه المعرفي المؤكد "قد"، وصور المجاز، وعامل القصر الحجاجي المتكرر ("لم... إلا" و"لا... إلا") الذي يضمن له اتساق أقواله مع المعارف العامة الذائعة للمتلقين عن شهرة المدينة وحسن نهرها، وإنكار ما عداها.

لعل تحيز ابن جبير ضد البغداديين أكثر ما يثير حيرة محلل خطابه؛ لأنه لا يقع في وصفه لهم تقريبًا إلا على أفعال مفسرة للحدث تحمل تقييمًا ذاتيًا، ليس لها أي وصف تفصيلي يرتبط بنموذج موقف بعينه يبررها أو يفصلها، ولا حتى نموذج لحالة فردية، سوى قوله المختصر المبهم بأنهم "يتبايعون بينهم بالذهب قرضًا". وما عدا ذلك أكثره تفسيرات ذاتية من ابن جبير لسلوكياتهم في هيئة أفعال حالة ذهنية، يتبعها بأحكام عامة عليهم بالويل والعذاب. يقول في فقرتين كاملتين:

- "وأما أهلها **فلا تكاد** تلقى منهم **إلا** من **يتصنع بالتواضع** رياء، **ويذهب بنفسه عجبًا وكبرياء، يزدرون** الغرباء، **ويظهرون** لمن دونهم الأنفة والإباء، **ويستصغرون** عمن سواهم الأحاديث والأنباء، قد **تصور** كل منهم في معتقده وخلده أن الوجود كله يصغر بالإضافة لبلده، فهم **لا يستكرمون** في معمور البسيطة مثوى غير مثواهم، كأنهم **لا يعتقدون** أن لله بلادًا أو عبادًا سواهم، **يسحبون أذيالهم أشرًا وبطرًا**، ولا يغيّرون في ذات الله منكرًا، **يظنون** أن أسنى

الفخار في سحب الإزار، **ولا يعلمون** أن فضله، بمقتضى الحديث المأثور، في النار.

يتبايعون بينهم بالذهب قرضًا، وما منهم من **يحسن** لله قرضًا، **فلا** نفقة فيها **إلا** من دينار تقرضه، وعلى يدي مخسر للميزان تعرضه، **لا تكاد** تظفر من خواص أهلها بالورع العفيف، **ولا** تقع من أهل موازينها ومكاييلها **إلا** على من **ثبت له الويل في سورة التطفيف، لا يبالون** في ذلك بعيب، **كأنهم من بقايا مدين قوم النبي شعيب.**

فالغريب فيهم معدوم الإرفاق، متضاعف الإنفاق، **لا** يجد من أهلها **إلا** من يعامله بنفاق، أو يهش إليه هشاشة انتفاع واسترفاق، **كأنهم من التزام هذه الخلة القبيحة** على شرط **اصطلاح بينهم واتفاق، فسوء** معاشرة أبنائها يغلب على طبع هوائها ومائها، ويعلل حسن المسموع من أحاديثها وأبنائها".

وجلي ما في الفقرتين من حشد لوسائل حجاجية ومؤكدات لغوية يعوض بها ابن جبير الفقر في نموذج الموقف؛ فأحكامه وتقييماته لا يجد لها القارئ سببًا من تجربة مروية يمكن أن يتشاركها مع الكاتب، أو يعود إليها لتزوده بدلالات وتفسيرات.

لذلك يوظف ابن جبير الموجه المعرفي "لا تكاد" والعامل الحجاجي "لا... إلا" لتقليل شواذ السمات القواعد التي يقررها لهم، مع ألفاظ التعميم ("التزام– "اصطلاح"– "اتفاق") إلى جانب التداخل الخطابي مع خطاب القصص القرآني الذي يشير إلى العقاب الإلهي والعبرة منه، ويستدعي به الكاتب نموذجَ موقفٍ مستقلًا تمامًا عن رحلته؛ ليحيل القارئ إلى دلالاته، ويُسقِط به الحكم الإلهي في أهل مَدْيَن على حكمه البشري الذاتي في أهل بغداد. ويضاف إلى كل ذلك موجهات القيمة في المركب العطفي "أشرًا وبطرًا"، والمركب الوصفي "الخلة القبيحة"، والإضافي "سوء معاشرة"، وموجهات النفي التي تنكر عنهم كل صفة طيبة؛ فيخرج المرسِل من ذلك بذكر عاقبة الغريب فيهم وخطرهم عليه.

كل ذلك دون أن يذكر تجربة واحدة وقعت له أو شهد عليها تبرر وصوله إلى مثل هذه الأحكام التعميمية.

لم يسلم الحكام العباسيون من العرض السلبي الذي قدمه ابن جبير للشرقيين، وإن جاء أقل حدة، وظف فيه ابن جبير استراتيجيته نفسها في البدء بتقييم قائم على فئة الأوصاف، ثم تبريره بأفعال واصفة للحدث، منفية هنا، في قوله:

- "ودور الخليفة مع آخرها، وهي تقع منها في نحو الربع أو أزيد، لأن جميع العباسيين في تلك الديار **معتقلون** اعتقالًا جميلًا لا يخرجون ولا يظهرون، ولهم المرتبات القائمة بهم".

ومحك التقييم هنا هو الوصف "معتقلون"، الذي لا يفسَّر في الواقع بكونهم لا يخرجون ولا يظهرون، بل كان من الممكن أن يستعمل جذرًا لغويًا آخر ونوعًا آخر من المشتقات، كأن يقول "مختبئون" أو "محتجبون"، لكنه استخدم لفظ الاعتقال وصيغة اسم المفعول فأوحى من خلالهما – عن وعي أو غير وعي – بضعف الحكام العباسيين وخضوعهم لتصرف غيرهم.

الشوام في نص رحلة ابن جبير:

بدا ابن جبير أقل تحيزًا تجاه أهل الشام باستثناء الشيعة منهم، وبخاصة جماعة الحشاشين الإسماعيلية الذين وصفهم بـ"الملاحدة"، وعرَّفهم بقوله:

- "ووراءها جبل لبنان وهو سامي الارتفاع، ممتد الطول، يتصل من البحر إلى البحر، وفي صفحته حصون **للملاحدة** الإسماعيلية، **فرقة مرقت من الإسلام وادعت الإلهية في أحد الأنام**، قيّض لهم شيطان من الإنس يعرف بسنان خدعهم بأباطيل وخيالات موّه عليهم باستعمالها، وسحرهم بمحالها، **فاتخذوه إلها**

يعبدونه ويبذلون الأنفس دونه، **وحصلوا من طاعته وامتثال أمره** بحيث يأمر أحدهم بالتردي من شاهقة جبل **فيتردى ويستعجل في مرضاته** الردى".

وبغض النظر عن ذكر طائفة الحشاشين في التاريخ ومعتقداتهم وأعمالهم، فإن لغة ابن جبير عنهم لغة تقريرية تعتمد على أفعال الحالة، لا الأفعال الواصفة للحدث ولا المفسرة له، ما يشي بأنه لم يحتك بهم وإنما ينقل الصورة النمطية عنهم.

وإن كان كلامه عن الحشاشين كلامًا خاصًا لم يعممه، فإنه يرى في التشيع بحد ذاته سببًا للعجب، وانزياحًا عن معياره النموذجي، ومن ثم تعميمًا للانتقاص من أهل المناطق التي ينتشر فيها، فيقول في حديثه عن دمشق:

- "وللشيعة في هذه البلاد أمور **عجيبة**، وهم أكثر من السنيين بها. وقد **عمّوا** البلاد بمذاهبهم، وهم فرق شتى: منهم الرافضة، وهم السبّابون؛ ومنهم الإمامية والزيدية، وهم يقولون بالتفضيل خاصة؛ ومنهم الإسماعيلية والنصيرية وهم كفرة فإنهم يزعمون الإلهية لعلي رضي الله عنه، تعالى الله عن قولهم؛ ومنهم الغرابية، وهم يقولون: إن عليًا رضي الله عنه، كان أشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم من الغراب بالغراب، وينسبون إلى الروح الأمين، عليه السلام، قولًا تعالى الله عنه علوًا كبيرًا، إلى فرق كثيرة يضيق عنهم الإحصاء، **قد أضلهم** الله وأضل بهم كثيرًا من خلقه".

فقد اختار الفعل "عموا" مع الموجه المعرفي "قد" لنقل معلومة مؤكدة لمتلقيه حول الآخر الشامي – الشيعي – يصفه بعدها بالضلال عبر توظيف الموجه نفسه؛ فيخرج المتلقي عن طريق قاعدة التعميم باستخلاص قضية كبرى مفادها عموم الضلال في مدينة دمشق وما حولها.

يعمد ابن جبير في الحديث عن أهل حمص وحلب كذلك إلى الفئة الرابعة من فئات التصنيف اللغوي، أي فئة الأوصاف، حتى إنه يستعمل جذر "وصف" مباشرة، فيقول عن أهل حمص:

- "وأهل هذه البلدة **موصوفون** بالنجدة والتمرس بالعدو لمجاورتهم اياه، **وبعدهم** في ذلك أهل حلب. **فأحمدُ** خِلالِ هذه البلدة هواؤها الرطب، ونسيمها الميمون تخفيفه وتجسيمه، فكأن الهواء النجدي في الصحة شقيقه وقسيمه".

وقد ذكر سببًا مباشرًا لالتصاق صفة النجدة والتمرس بالعدو لهم، لكنه ذكره كأنه سمة أصيلة في حد ذاته، من جديد غير مرتبطة بموقف أو سياق بعينه، وعامة غير مقتصرة على البعض دون الكل، حتى إنه يفاضِل بين أهل حمص وأهل حلب في هذه الصفة دون أن يذكر أساسًا لهذه المفاضلة، أو يروي موقفًا لاستنتاجها.

ويعود ابن جبير لاستعمال الموجهات، فينتقل مباشرة من ذم أهل حمص إلى مدح طبيعة المدينة وطقسها باستعمال اسم التفضيل، فكأنه ينكر على أهلها تمتعهم بجمال هذه المدينة التي تذكره بمدينة إشبيلية الأندلسية، فتستدعي لديه نماذج موقف سابقة مرتبطة بموطنه وأهله، فيجد في الأرض ما يعوض سخطه على البشر.

يواصل حديثه عن أهل الشام، فيقول:

- "ومخاطبة أهل **هذه** الجهات **قاطبة** بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد وبامتثال الخدمة وتعظيم الحضرة، وإذا لقي أحد منهم آخر مسلمًا يقول: جاء المملوك أو الخادم برسم الخدمة، كناية عن السلام"... "وصفة سلامهم إيماء للركوع أو السجود، **فترى الأعناق تتلاعب** بين **رفع وخفض**، وبسط وقبض، وربما طالت بهم الحالة في ذلك، فواحد ينحط وآخر يقوم، وعمائمهم **تهوي** بينهم هويًا. وهذه الحالة من **الانعكاف الركوعي** في السلام كنا عهدناه لقينات النساء، وعند

استعراض رقيق الإماء، **فيا عجبًا** لهؤلاء الرجال، كيف تحلوا بسمات ربات الحجال، لقد **ابتذلوا** أنفسهم فيما **تأنف** النفوس الأبية منه، واستعملوا **تكفير الذمي** المنهي في الشرع عنه! لهم في الشأن طرائق **عجيبة** في **الباطل. فيا للعجب منهم**، إذا تعاملوا بهذه المعاملة وانتهوا إلى هذه الغاية في الألفاظ بينهم **فبماذا** يخاطبون سلاطينهم ويعاملونهم؟!".

واضح في هذا المقتبس أن العنصر المتحكم من نموذج السياق في تقييم ابن جبير للشاميين هو مرة أخرى اختلاف المعايير والأعراف الخاصة بجماعة انتمائه. وأما نموذج الموقف الحالي الذي يرويه فقد استدعى في ذهنه نماذج مشابهة متراكمة في ذاكرته، لكنها تخص أهل الذمة والإماء. ولأن معاييره لا تعرف هذا السلوك للرجال، وترفض تشبه الرجال المسلمين بالذميين والإماء، فقد استغربه وعده عجيبًا وباطلًا.

ولهذا الغرض وظف عددًا من الموجهات القيمية، أبرزها أسلوب التعجب السماعي، والاستفهام التعجبي، والصفة "عجيبة" نفسها. وهو يسهب في التفاصيل التصويرية التي يوظف فيها فئة الأفعال الواصفة للحدث – مرة أخرى – بعد أن يذكر التقييم العام، فيحاول أن ينقل صورة حركية حية للسلوك الذي يستهجنه، مصحوبة بمحاولة مشاركة عاطفة الاستهجان ونقلها إلى القارئ عبر الألفاظ الانفعالية، والتشبيهات المجازية والاستفهام، والإحالة إلى حاسة البصر في خطاب مباشر للمتلقي عبر الفعل "ترى".

ثانيًا: العرض الإيجابي لحالات استثنائية:

من الإجحاف بطبيعة الحال الادعاء بأن كل عرض ابن جبير للشرقيين كان سلبيًا، لكن الأطراف التي قدم لها عرضًا إيجابيًا كانت تمثل حالات فردية أو خاصة، أي أشخاصًا بأعينهم أو فئات محددة.

وكان ذلك العرض الإيجابي دائرًا في محورين رئيسين:

١)أطراف تشارك جماعة انتماء ابن جبير القيم والأعراف ذاتها، وهي كذلك تُمنح حصانة ضد العرض السلبي، مصدرها شهرتها وقرائنها في نموذج السياق:

أبرز هؤلاء صلاح الدين الأيوبي، فبالرغم من العرض السلبي الذي قدمه ابن جبير للمسئولين عن طريق الحج المار عبر مصر، فإنه يحرص على تبرئة السلطان صلاح الدين الأيوبي من مسئولية تلك الممارسات بحكم من نموذج السياق الذي يغذي النص بمعلومات حول شهرة صلاح الدين التي طبقت الآفاق بالعدل والحق، والتي خلقت صورة نمطية حتى عند ابن جبير نفسه يصعب على ذهنه معارضتها أو قبول انهيارها، ويصعب تصديقها من قبل متلقي نصه؛ فلجأ إلى محاولة صنع اتساق بين النص وسياقه، وبتعبير أدق بين النص وما قيل قبله.

محاولة ابن جبير صنع هذا الاتساق مع الصورة النمطية الإيجابية لصلاح الدين تصطدم في الواقع بنماذج الموقف السلبية التي سردها عن عمال الدولة؛ لهذا فقد بذل في تلك المحاولة طاقة حجاجية كبيرة، فشحن ذكره لإيجابيات صلاح الدين وتبرئته من السلبيات بعدد من الحجج والموجهات والعوامل والروابط الحجاجية، يقول بعد سرده موقف التفتيش بالإسكندرية:

- "وهذه **لا محالة** من الأمور **الملبس** فيها على السلطان الكبير المعروف بصلاح الدين، **ولو** علم بذلك **على ما يؤثر عنه من العدل وإيثار الرفق لأزال ذلك،** وكفى الله المؤمنين تلك الخطة الشاقة واستؤدوا الزكاة على أجمل الوجوه. **وما** لقينا ببلاد هذا الرجل ما يلم به قبيح لبعض الذكر **سوى** هذه الأحدوثة التي هي **من نتائج** عمال الدواوين".

وبعد موقف الصعيد يقول:

- وهذا أمر **يقع القطع** على أن صلاح الدين لا يعرفه. **ولو** عرفه لأمر بقطعه كما أمر بقطع ما هو أعظم منه، ولجاهد المتناول له"... "وكان يحافظ على جانب هذا السلطان العادل الذي قد شمل البلاد عدله **وسار في الآفاق ذكره**، ولا يسعى فيما يسيء الذكر بمن قد **حسن الله ذكره**، ويقبّح المقالة في جانب من **أجمل الله المقالة عنه**".

ففي هذين المقتبسين يوظف ابن جبير موجهات معرفية يقينية وصدقية هي: "لا محالة" و"يقع القطع" وأداة الامتناع للامتناع "لو"، فيجزم من خلالها بعدم إمكانية أن يكون صلاح الدين على علم بتلك المواقف، وكذلك عامل القصر الذي يحصر مساوئ صلاح الدين في خطأ واحد منسوب لغيره بالأساس عن طريق الربط السببي في تعبيره "من نتائج".

ويستمر عرضه الإيجابي لشخص صلاح الدين الأيوبي، مع تجدد المعطيات الإيجابية التي يعاينها، فيقول عن إلغائه مكس الحج:

- "وكفى الله المؤمنين على يدي هذا السلطان العادل حادثًا عظيمًا وخطبًا أليمًا، **فترتب الشكر** له على كل من يعتقد من الناس أن حج البيت الحرام إحدى القواعد الخمس من الإسلام، حتى يعم جميع الآفاق **ويوجب الدعاء** له في كل صقع من الأصقاع وبقعة من البقاع ".

وهو يؤكده هنا بموجهين من موجهات الإلزام هما الفعلان "ترتب" و"يوجب".

يشبه هذا العرض الإيجابي الفردي ما قدمه عن بعض العلماء الذين أعجب بمجالسهم، وأهمهم جمال الدين ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)، الذي يقول فيه ابن جبير:

- "ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه، الإمام **الأوحد**، جمال الدين أبي الفضائل بن علي الجوزي"... "فشاهدنا مجلس رجل **ليس من عمرو ولا زيد، وفي جوف الفرا كل الصيد، آية** الزمان، **وقرة عين** الإيمان، **رئيس** الحنبلية، **والمخصوص** في العلوم بالرتب العلية، إمام الجماعة، **وفارس** حلبة هذه الصناعة، **والمشهود له بالسبق** الكريم في البلاغة والبراعة **ومالك** أزمة الكلام في النظم والنثر، **والغائص** في بحر فكره على نفائس الدّرّ".

فهو يكيل لابن الجوزي مختلف الصفات الحسنة بمختلف صيغ الأوصاف العربية القياسية (اسم الفاعل وصيغة المبالغة واسم المفعول واسم التفضيل) وغير القياسية، وينفي عنه أي شبه بغيره من البشر عبر العطف الذي يهدف إلى شمول مجازي "ليس من عمرو ولا زيد"، مع التناص مع المثل العربي "كل الصيد في جوف الفرا" الذي يستعمل للتعبير عن الأمر يغني كبيره عن صغيره(٤٥)، فكأن ابن الجوزي جمع كل المحاسن فأغنى سامعه عمن سواه.

ومن اللطيف أن ابن جبير يشير بوضوح في مثل هذه المواضع إلى تأثره بنموذج السياق والأيديولوجيا المهيمنة على الصورة النمطية لموصوفه، من خلال تعبيرات مثل: "على ما يؤثر عنه من العدل وإيثار الرفق"- "سار في الآفاق ذكره"- "أجمل الله المقالة عنه"- "المشهود له بالسبق".

٢) حالات التَّحَوُّط الشكلي:

ويقصد بها الاحترازات الخطابية الشكلية التي ينأى المرسل بنفسه من خلالها عن الشك في حياده، أو يستعملها – كما يقول فان دايك – لكي لا يُنظَر إليه على أنه عنصري أو متحيز ولا يعطي انطباعًا سلبيًا عن نفسه(٤٦).

ومن آليات هذا التحوط التعبيرات المتكررة في الدعاء لبعض المدن التي يزورها، مثل تسميته لبغداد بلقبها المعروف "مدينة السلام" في قوله:

- "ذكر مدينة السلام بغداد **حرسها الله** تعالى".

ومثل ذلك قال عن دمشق:

- "ونحن بدمشق، **حرسها الله**".

وكذلك الألقاب الرسمية والدعاء لبعض الخلفاء العباسيين وغيرهم، كما في قوله عن مسجد أبي جعفر المنصور ببغداد:

- "ثم محلة باب البصرة، وهي أيضًا مدينة، وبها جامع المنصور، **رحمه الله**".

ومن ذلك أيضًا حالات الاعتذار والاستغفار والاستثناء التي يعقب بها كل عرض سلبي لإحدى الجماعات، مثل قوله بعد حديثه عن الفرق والشيع المشرقية وتقريره ألا إسلام إلا ببلاد المغرب:

- "**إلا** من عصم الله عز وجل".

وكذلك بعد وصفه المستهجن للعراقيين، الذي أعقبه بقوله:

- "**أستغفر الله إلا** فقهاءهم المحدثين ووعاظهم المذكرين، لا جرم أن لهم في طريقة الوعظ والتذكير، ومداومة التنبيه والتبصير، والمثابرة على الإنذار المخوف والتحذير، مقامات تستنزل لهم من رحمة الله تعالى ما يحط كثيرًا من أوزارهم، ويسحب ذيل العفو على سوء آثارهم ويمنع القارعة الصماء أن تحل بديارهم".

وكأنه هنا يتناص مع قول الله تعالى {وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} (الأنفال ٣٣)، لا لشيء سوى تبرئة ذمته والتخفيف من وطأة أحكامه السابقة عليهم بالعذاب والويل، الذي استحضر فيه أيضًا نصوصًا من القصص القرآني.

الخاتمة:

سعى هذا البحث إلى رصد مظاهر التحيز اللغوي في رحلة ابن جبير الأندلسي تجاه أهالي البلاد الشرقية التي ارتادها في رحلته، وتحليلها في ضوء المقاربة الاجتماعية الإدراكية للتحليل النقدي للخطاب، في أبعادها الثلاثة: المجتمع، والإدراك الاجتماعي، والنص ببناه الثلاثة: الصغرى والكبرى والعليا. ويمكن إجمال ما توصل إليه في النقاط الآتية:

١. على مستوى البنى النصية الصغرى: وظف ابن جبير في نقل تحيزاته تجاه المشرقيين عدة عناصر منها: نموذج التصنيف اللغوي، والموجهات، وعناصر السخرية، والمجاز، والافتراضات، ووسائل الربط السببي والعكسي، ومختلف الخيارات المعجمية، والعناصر الإحالية.

٢. على مستوى البنى النصية الكبرى: عمد ابن جبير بشكل متكرر إلى الانتقال من الخاص إلى العام، وتقديم نماذج موقف بعينها حول سلوك سلبي للشرقيين على أنها أمثلة لقواعد عامة أكثر شمولًا.

كما عمد إلى دمج عدة قضايا جزئية متشابهة لتجارب سلبية في مناطق متفرقة من المشرق، لبناء قضية تقييمية كبرى، ثم العودة إلى إسقاط تلك القضايا التقييمية الكبرى على نماذج جزئية جديدة باعتبارها تنطبق على جميع المشرقيين.

إلى جانب هذا توظَّف في نص الرحلة علاقات دلالية عدة بين قضايا النص كالمقارنة والمغايرة والسببية، بغرض تعزيز حكم المرسِل على موضوعه.

٣. على مستوى البنى النصية التنظيمية العليا: أسهم الإطار السردي العام للنص في الاحتجاج لآراء المرسِل؛ فالسرد بحد ذاته يعمل على إشراك المتلقي في الأحداث المروية، ومن ثم كسب تعاطفه.

كما يسهم التوحد بين صوت الراوي والمرسِل في توفير حجة المشاهَدة العينية التي يصعب إنكارها.

كذلك عملت تفاصيل السرد في بعض النماذج على رفع درجة معايشة المتلقي للتجربة، بتوالي المشاهد الحركية وتعاقب الأحداث ونتائجها.

يضاف إلى ذلك كله تدخل المرسِل في مقاطع السرد بعبارات حجاجية وتقييمية وحكمية صريحة لإدارة تقييمات المتلقي.

وتنبغي الإشارة إلى أن البحث لم يتطرق إلى المقاطع الوصفية المحضة من نص الرحلة، التي انصبت على وصف المعالم والمرافق والآثار في البلدان التي زارها ابن جبير.

٤. من ضمن عناصر البنى التنظيمية التي تسهم في توطيد تحيزاته بدْءُ ابن جبير حديثه عن سلوك الجماعات التي يذكرها في العادة بجمل تقريرية تثبت أحكامًا عامة، ثم ذِكْر مبرراتها التفصيلية، ثم العودة لتوكيد الاستنتاج المعمم مرة أخرى.

٥. لم يتوافق استعمال ابن جبير لنموذج التصنيف اللغوي بشكل كامل مع المعطى القائل بأن السلوك المنسجم مع الصور النمطية السائدة يُعبَّر عنه بالمستوى الأكثر تجريدًا (مستوى الأوصاف)، والسلوك غير المنسجم معها بالمستوى الأقل تجريدًا (مستوى الأفعال الواصفة للحدث).

لكن ابن جبير يقدم بنفسه نماذج موقف لأحداث وجماعات معينة، ويحاول تنميطها والإقناع بها مستعملًا فئتي الأفعال الواصفة للحدث والأفعال التفسيرية التي تسهم في تصوير الماهد ونقل تفاصيلها وتقييماته، ثم يبني على تلك النماذج التي تتحول بعدها إلى معلومات قديمة لدى المتلقي، معلومات تقييمية وحكمية أخرى جديدة باستعمال فئة

الأوصاف الأكثر تجريدًا واستقلالًا عن السياق وتجاوزًا للمتغير الزمني. وهذا كما في حديثه عن المصريين على سبيل المثال.

وحين يفتقر عرضه إلى نماذج موقف لتجارب داعمة، يغالي ابن جبير في شحن فقراته بالمؤكدات والموجهات ومختلف الوسائل الإقناعية، كما في عرضه لأهل العراق.

٦. حين تُغذِّي الآليات الإدراكية، متمثلةً في نموذجي السياق والموقف، مرسِل النص بمعلومات متناقضة حول عنصر ما، فإن هذا التناقض ينعكس في النص عبر الآليات اللغوية للتحوط والاحتراز، من أجل صنع اتساق داخلي في قضايا النص. وهو ما تمثل في تناول ابن جبير لبعض الموضوعات الفرعية في رحلته، كعلماء المشرق وشخص صلاح الدين الأيوبي.

الهوامش:

(١) ابن جبير: رحلة ابن جبير، تحقيق: محمد زينهم عزب، دار المعارف، القاهرة، صـ٦.

(2) قدم فان دايك لمقاربته شروحًا وتطبيقات عدة، منها على سبيل المثال:

فان دايك، تون: دراسات الخطاب النقدي: المقاربة المعرفية الاجتماعية، في: مناهج التحليل النقدي للخطاب، تحرير: روث فوداك وميشيل ماير، ترجمة: حسام أحمد فرج وعزة شبل محمد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٤، صـ١٣٧- ١٧٩.

(٣) السابق، صـ١٦٨.

(٤) لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٧٤، مجـ٢، صـ٢٣٠.

وكراتشكوفسكي، إغناطيوس يوليانوفتش: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، جامعة الدول العربية- لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٣، القسم الأول، صـ٢٩٨، ٢٩٩.

(٥) كراتشكوفسكي، إغناطيوس يوليانوفتش: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، القسم الأول، صـ٢٩٩.

(٦) لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، مجـ٢، صـ٢٣١.

(٧) مسار الرحلة هذا هو ما وصفه ابن جبير بالتفصيل، ويمكن مراجعة ملخص له في:

حسين نصار: رحلة ابن جبير، تراث الإنسانية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي- المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، مجـ١، ع٣، مارس ١٩٦٣، صـ٢٤١- ٢٤٥.

(٨) ابتسام مرعي خلف الله: العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥، صـ١٣٣.

ويروى في ذلك رسالة شهيرة بعث بها صلاح الدين إلى المنصور في سنة لاحقة، يستنصره فيها ضد الصليبيين، لكن المنصور لم يستجب له.

(٩) محمد عبد الله عنان: مشروع الموحدين لغزو مصر: هل بالغ ابن جبير فيما زعم؟، مجلة العربي، ع٦٥، أبريل ١٩٦٤، صـ٦٦.

(١٠) عن طرق التدوين في أدب الرحلة راجع:

ناصر عبد الرازق الموافي: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات المصرية– مكتبة الوفاء، ط١، ١٩٩٥، صـ٦٠.

(١١) محمد علم الدين الشقيري: صورة مصر عند رحالة بلاد المغرب والأندلس من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة، دار فرحة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، صـ٢٢.

(١٢) المراكشي (العباس بن إبراهيم السملالي): الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، مراجعة: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩٨، جـ٤، صـ١٧٩.

(١٣) شوقي ضيف: الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٨٧، صـ٧١.

(١٤) هذا التصور للبنى الإدراكية قدمه فان دايك في عدة أعمال متعاقبة، ولأخذ فكرة مجملة عنه يمكن مراجعة:

Reisigl, Martin, and Ruth Wodak. *Discourse and discrimination: Rhetorics of racism and antisemitism*. Routledge, 2005, pp. 21- 24.

(15) Van Dijk, Teun A. "Context." *The international encyclopedia of language and social interaction* (2015), p. 6 (online edition).

(١٦) بنفنست، إميل: عن الذاتية في اللغة، منشور في كتاب: صابر الحباشة، لسانيات الخطاب– الأسلوبية والتلفظ والتداولية، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ط١، ٢٠١٠، صـ ١٤٠.

(١٧) ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم): لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، جـ١١، صـ٥٢١. (فصل)

(١٨) أحمد أمين: ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٥، جـ٣، صـ٢٩، ٣٠.

(١٩) السابق، صـ٥٩– ٦٦.

(٢٠) السابق، صـ١٣.

(٢١) السابق، صـ٢٢– ٢٧.

(٢٢) السابق، صـ٢٤.

(23) **Kintsch, Walter, and Teun A. Van Dijk. "Toward a model of text comprehension and production."** ***Psychological review*** **85, no. 5 (1978), p. 365.**

(٢٤) فانديك، توين: علم النص– مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، ٢٠٠١، ص٧٤.

(25) **Van Dijk, Teun A.** ***News analysis: Case studies of international and national news in the press*****. Lawrence Erlbaum Associates, 1988, p.17.**

(26) **Kintsch, Walter, and Teun A. Van Dijk. "Toward a model of text comprehension and production, p. 365.**

(٢٧) فانديك، توين: علم النص– مدخل متداخل الاختصاصات، صـ٧٥.

(28) **Van Dijk, Teun A.** ***Macrostructures: An interdisciplinary study of global structures in discourse, interaction, and cognition*****. Lawrence Erlbaum Associates, 1980, pp. 46-48.**

(٢٩) فانديك، توين: علم النص– مدخل متداخل الاختصاصات، صـ٢١٢.

(30) **Kintsch, Walter, and Teun A. Van Dijk. "Toward a model of text comprehension and production, p. 366.**

(31) Semin, Gün R., and Klaus Fiedler. "The cognitive functions of linguistic categories in describing persons: Social cognition and language." *Journal of personality and Social Psychology* 54, no. 4 (1988), p. 559.

(32) Ibid., p. 566.

(33) Collins, K.A. and Clément, R. Language and prejudice: Direct and moderated effects. *Journal of Language and Social Psychology*, *31*(4), 2012, p. 380.

(٣٤) في العربية تشترك المصادر مع الأفعال في الدلالة على الحدث، دون الزمن.

(35) Van Dijk, Teun A. *Communicating racism: Ethnic prejudice in thought and talk*. Sage Publications, 1987, p. 299.

(٣٦) شوقي ضيف: الرحلات، صـ٧٢.

(٣٧) سيرفوني، جان: الملفوظية، ترجمة: قاسم المقداد، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٨، صـ٥٩.

(٣٨) شارودو، باتريك ودومينيك منغنو: معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود، دار سيناترا، تونس، ٢٠٠٨، صـ٣٧١.

(٣٩) راجع عن تصنيف الموجهات عمومًا:

سيرفوني، جان: الملفوظية، صـ٦٢، و٦٣.

ومن النماذج التي اقتُرِحَت لدراسة الموجهات في اللغة العربية ما قدمته المستعربة الرومانية نادية أنجيليسكو في:

Anghelescu, Nadia. "Modalities and Grammaticalization in Arabic." *Arabic grammar and linguistics* (1999), p. 13 et seq.

(40) Van Dijk, Teun A. *Communicating racism: Ethnic prejudice in thought and talk*, p. 291.

(٤١) هكذا في نص الرحلة.

(٤٢) ابن فارس (أحمد): مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٩٧٩، جـ٣، صـ٢٢١. (شهد)

(43) Van Dijk, Teun A. *Communicating racism: Ethnic prejudice in thought and talk*, p. 290.

(٤٤) ابن منظور: لسان العرب، جـ١٢، صـ٤٣٣. (غتم)

(٤٥) ومورد المثل أن ثلاثة رجال خرجوا للصيد، فاصطاد أحدهم أرنبًا، والآخر ظبيًا، والثالث حمارًا وحشيًا – وهو الفرأ –، فتطاول الأول والثاني على الثالث، فقال لهما: كل الصيد في جوف الفرا، أي إن صيده أعظم من صيدهما.

راجع:

محمود إسماعيل صيني، وناصف مصطفى عبد العزيز، ومصطفى أحمد سليمان: معجم الأمثال العربية، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٢، صـ٢٩، ٣٠، ١٤٠.

(46) Van Dijk, Teun A. *Communicating racism: Ethnic prejudice in thought and talk*, p.295.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المراجع العربية والمترجمة:

١. ابتسام مرعي خلف الله: العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥.

٢. أحمد أمين: ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٥، جـ٣.

٣. بنفنست، إميل: عن الذاتية في اللغة، منشور في كتاب: صابر الحباشة، لسانيات الخطاب- الأسلوبية والتلفظ والتداولية، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ط١، ٢٠١٠.

٤. ابن جبير: رحلة ابن جبير، تحقيق: محمد زينهم عزب، دار المعارف، القاهرة.

٥. حسين نصار: رحلة ابن جبير، تراث الإنسانية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي- المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، مجـ١، ع٣، مارس ١٩٦٣.

٦. سيرفوني، جان: الملفوظية، ترجمة: قاسم المقداد، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٨، صـ٥٩.

٧. شارودو، باتريك ودومينيك منغنو: معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود، دار سيناترا، تونس، ٢٠٠٨.

٨. شوقي ضيف: الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٨٧.

٩. ابن فارس (أحمد): مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٩٧٩، جـ٣.

١٠. فان دايك، توين: دراسات الخطاب النقدي: المقاربة المعرفية الاجتماعية، في: مناهج التحليل النقدي للخطاب، تحرير: روث فوداك وميشيل ماير، ترجمة: حسام أحمد فرج وعزة شبل محمد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٤.

١١. فان دايك، توين: علم النص- مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، ٢٠٠١، ص٧٤.

١٢. كراتشكوفسكي، إغناطيوس يوليانوفتش: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، جامعة الدول العربية- لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٣، القسم الأول.

١٣. لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٧٤، مج٢.

١٤. محمد عبد الله عنان: مشروع الموحدين لغزو مصر: هل بالغ ابن جبير فيما زعم؟، مجلة العربي، ع٦٥، أبريل ١٩٦٤.

١٥. محمد علم الدين الشقيري: صورة مصر عند رحالة بلاد المغرب والأندلس من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة، دار فرحة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.

١٦. محمود إسماعيل صيني، وناصف مصطفى عبد العزيز، ومصطفى أحمد سليمان: معجم الأمثال العربية، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٢.

١٧. المراكشي (العباس بن إبراهيم السملالي): الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، مراجعة: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩٨، جـ٤.

١٨. ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم): لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، جـ١١، ١٢.

١٩. ناصر عبد الرازق الموافي: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات المصرية– مكتبة الوفاء، ط١، ١٩٩٥.

ثانيًا المراجع الأجنبية:

1. Anghelescu, Nadia. "Modalities and Grammaticalization in Arabic." *Arabic grammar and linguistics* (1999).

2. Collins, K.A. and Clément, R. Language and prejudice: Direct and moderated effects. *Journal of Language and Social Psychology*, *31*(4), 2012.

3. Kintsch, Walter, and Teun A. Van Dijk. "Toward a model of text comprehension and production." *Psychological review* 85, no. 5 (1978).

4. Reisigl, Martin, and Ruth Wodak. *Discourse and discrimination: Rhetorics of racism and antisemitism*. Routledge, 2005.

5. Semin, Gün R., and Klaus Fiedler. "The cognitive functions of linguistic categories in describing persons: Social cognition and language." *Journal of personality and Social Psychology* 54, no. 4 (1988).

6. Van Dijk, Teun A. "Context." *The international encyclopedia of language and social interaction* (2015). (online edition)

7. Van Dijk, Teun A. *Communicating racism: Ethnic prejudice in thought and talk*. Sage Publications, 1987.

8. Van Dijk, Teun A. *Macrostructures: An interdisciplinary study of global structures in discourse, interaction, and cognition*. Lawrence Erlbaum Associates, 1980.

9. Van Dijk, Teun A. *News analysis: Case studies of international and national news in the press*. Lawrence Erlbaum Associates, 1988.

Linguistic Bias in the Travels of Ibn Jubayr to the Arab East

Dr. Nourhan Abdelraouf Ahmed Mohamed
A Lecturer at the Department of Arabic Langauge
Faculty of Languages (Alsun), An Shams University

Abstract

This article analyzes the text of The Travels of Ibn Jubayr to the Arab East, with the aim of exploring its linguistic devices, which present stereotypes about Orientals, and the rhetorical mechanisms that supported his propaganda of al-Muwaḥḥidūn.

The article follows the socio-cognitive approach to critical discourse analysis of Teun van Dijk, which depends on 3 dimensions: social structures, social cognition, and text structures.

These three dimensions constitute the main parts of the article. Social structures focus on the actor of discursive event, and the production of discursive event. Social cognition analyzes the temporal and spatial setting, and the types of discourse participants, depending on concepts of context model and situation model. And Analyzing textual structures focuses on features of textual microstructure, macrostructure and superstructure, that play role in Ibn Jubayr's presentation of Orientals.

The article also makes use of some theoretical studies of linguistic bias and argumentative discourse.

Keywords: Critical Discourse Analysis, Ibn Jubayr, linguistic bias, travel literature, text linguistics.